عبد الله كنون

أنجم السياسة وقصائد أخرى

وهي نماذج من الشعر المغربي النادر موثقة ومحققة
مع تعريف بأصحابها وتعليق خفيف على بعض أبياتها
بما لابد منه لتوضيح معانيها

دار الثقافة
للنشر والتوزيع
الدار البيضاء

أنجم السياسة وقصائد أخرى

وهي نماذج من الشعر المغربي النادر مؤلفة ومحققة
مع تعريف بأصحابها وتعليق خفيف على بعض أبياتها
بما لابد منه لتوضيح معانيها

عبد الله كنون

أنجم السياسة وقصائد أخرى

وهي نماذج من الشعر المغربي النادر موثقة ومحققة
مع تعريف بأصحابها وتعليق خفيف على بعض أبياتها
بما لا بد منه لتوضيح معانيها

دار الثقافة
للنشر والتوزيع
32-34 شارع فيكتور هيكو — ص.ب. 4038
الهاتف 30.76.44 - 30.23.75
157 شارع لاجيروند — الهاتف 24.79.32
تيليكس 22602 — الدار البيضاء

الطبعة الأولى 1410هـ/1989م
جميع حقوق الطبع محفوظة
الايداع القانوني رقم 1989/604

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان من رأيي دائما أن الذين أرخوا للأدب العربي، فوقفوا به عند مشارف القرن الخامس، قد ظلموا هذا الأدب وأوجدوا فيه فجوة كبيرة تمتد من نهاية القرن الرابع إلى بداية القرن الرابع عشر حين انبلاج فجر النهضة الحديثة، أي مدى تسعة قرون كاملة، يحكمون عليها بالعقم الأدبي، وضحالة الفكر، ويعدونها عصور انحطاط وتراجع، خاصة في ميداني الشعر والنثر، والشعر بالأخص.

ولعل مرجع ذلك إلى الكاتب الأول الذي خطط لتاريخ الأدب، فرأى أن عهد ازدهاره وغلبته على ماسواه من الآداب المنتسبة إلى الأقوام غير العربية، المتعايشة في ظل الدولة الاسلامية الكبرى، هو العهد العباسي الأول، فتبعه كل الذين كتبوا في الموضوع، كما يحصل غالبا في مثل هذه الأعمال، لاسيما والتأريخ للأدب العربي، وتقسيمه إلى عصور، فن مُحدث إنما ظهر أولا في البرامج الدراسية الجديدة بحكم سد الحاجة إليه، مقابل ماهو موجود فيها من مادة تاريخ الآداب الأجنبية.

والأمر إن يكن أُخذ بعامل السرعة وسوء التقدير، فقد آن الأوان لمراجعة الموقف وتصحيح الغلط، ووضع مسطرة سليمة لتقويم إنتاجنا الأدبي في العصور المحكوم عليه بالتخلف، بعد إجراء مسح دقيق لهذا الانتاج في كتب التراث من مجموعات أدبية ودواوين شعرية وغيرها، التي ماتزال مخطوطة، والتي طبعت في السنوات المتعاقبة بعد ظهور جل المؤلفات المتداولة في تاريخ الأدب العربي.

ولعل مثال المغرب العربي أعظم دليل على خطأ الفكرة التي بنيت عليها تواريخ أدبنا، فإنه كان يهمل فيها اهمالا كليا، وإذا ذكر تسامحا، فأكثر ما يُذكر ابن رشيق وكتابه العمدة، وابن خلدون ومقدمته، إلى أن ظهرت كتبنا في تاريخ الأدب المغربي، فصارت بعض كتب الأدب العربي الجديدة تلم بشيء من تاريخ المغرب وأدبه وشخصياته، وهكذا يتبين للملاحظ الاجحاف الكبير الذي وقع للأدب العربي، من جانب المخططين لتاريخه والمؤلفين فيه.

نعم إن العهد العباسي الأول كان قمة النهضة الفكرية العربية، وعصر التفتُّح على فنون العلم والأدب والمعرفة، وقد استقطب جميع العناصر والقوميات المتساكنة في الرقعة الفسيحة التي كانت تخضع لدولته، فأغنتها لغته وأدبه عن لغاتها وآدابها المتنوعة، وكانت أيامه زينة للدَّهر، وفترة زاهرة في تاريخ الانسانية، قلما

عرف العالم لها نظيرا. وكل ماقيل فيه لايوفيه حقه من التنويه والتقدير، وأما الأدب العربي في هذه الفترة، فإنه فاق أدب الأمم السابقة واللاحقة، قبل عصر النهضة الحديثة في الغرب، والذين ينالون منه ويزرون به من الباحثين الأجانب ومن لف لفهم، فإنما يبعثهم على ذلك كراهية للعرب وحقد على دولتهم، وشعوبية جديدة خلفت الشعوبية التي عرفها العرب في أوطانهم من بعض العناصر الموتورة والقوميات المنسحقة التي لم يبق لها وجود مع البعث العربي العظيم.

ولقد استقلت فارس بعد ذلك، وأحيت لغتها وأدبها، بالاستمداد من اللغة العربية وأدبها، فاستحقت تنويه أولئك الباحثين واكبارهم من حيث يعيبون الأدب العربي وينالون منه، وماذلك إلا تعصبا على العرب واستخفافا بأمرهم والا فأين يجيء الأدب الفارسي من الأدب العربي الغني الواسع المليء ؟ وقد نقلت إلى العربية أخيرا بعض كنوزه التي طالما نوه بها المستشرقون وعدوها من الروائع العالمية، مثل كتاب كلستان لسعدي، فهل يقاس ولو بكتاب المستظرف للابشيهي الذي ربما يوضع في آخر قائمة كتب الأدب العربي ؟

ولست أشنع أو أطعن في الأدب الفارسي، وهو أدب إسلامي كبير، وانما أريد أن أؤكد أن التقليل من شأن الأدب العربي والتشكيك في قيمته، حتى في أزهى عصوره، خطة مرسومة للتزهيد فيه، وصرف أبنائه عنه، فما بالك بالعصور التي تلته، لأننا وان قلنا بأن العصر العباسي الأول، هو العصر الذهبي لأدبنا، فليس

معنى ذلك أن العصور الأخرى لابد أن تكون عصور انحطاط لهذا الأدب وتراجع مستديم، وأن ننظر إليه بهذه العين وندرسه على هذا الأساس، كما أراد الموجهون والمخططون الأول، سواء كانوا منا أو من غيرنا، وسواء كان عملهم هذا صادرا عن قصد سيء أو تقدير خاطىء.

ومجال الكلام في هذا الباب واسع جدا، ولم نعقد هذا البحث لتقصيه ولا للالمام به ولو في الجملة، ولكنها خطرة فكر، كان لابد منها تمهيدا للموضوع الذي نحن بصدده، وهو مما يمت إلى هذه القضية بسبيل، بل انه أحد الأمثلة الناطقة بصدقها فيما يقدمه من نماذج شعرية بديعة، أهملها تاريخ الأدب العربي، وفاتت الراصدين المدونين لفوائده ودرره.

إنها قصائد رائعة من الطراز الممتاز شكلا ومضمونا، لفظا ومعنى، فمن حيث الأداء توفرت فيها جميع شروط البلاغة مع العبارة الفصيحة والتصوير البارع، ومن حيث المحتوى اشتملت على أغراض أبكار قلما تناولها الشعر العربي قديمه وجديده، على أن بعضها وان تواطأت مع المروي من الأشعار في موضوعاته المعهودة، فقد كان المامها به في أسلوب مشبع بالحيوية والتجديد.

وناهيك أن من هذه القصائد، مايحمل اسما علما تتعارف به لدى الأدباء، ويميزها عن غيرها من مختلف المنظومات والأشعار، كهذه التي تسمى أنجم السياسة، والتي عنونا بها هذا البحث.

قصيدة أنجم السياسة

هي قصيدة فريدة في موضوعها، لانعرف لها نظيرا فيما تناولته من مادة السياسة وتدبير الملك بأسلوب شعري جميل، فإنما عهدنا أن يتطرق شعراؤنا لهذا الموضوع في البيت والبيتين، أو المقطوعة الصغيرة تحتوي خاطرة من خواطر السياسة أو جزئية من جزئيات قواعد تدبير الملك كقول ابن زريق في عينيته المشهورة :

أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته
وكل من لايسوس الملك ينزعه

وقول أبي الفتح البستي :

إذا غدا ملك باللهو مشتغلا
فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس في الميزان هابطة
لماغدا وهو برج اللهو واللعب

وقول الافوه الاودي من قصيدة :

فينا معاشر لم يبنوا لقومهم
وان بنى قومهم ماأفسدوا عادوا

لايرشدون ولن يرعـوا لمرشدهــم
فالغى منهم معا والجهـل ميعـاد
لايصلح الناس فوضى لاسراة لهم
ولاسراة إذا جهـــــالهم سادوا
والبيـت لا يُبتنـى إلا بأعمـــدة
ولا عماد إذا لم تـرس أوتـاد
فـان تجمـع أسبـاب وأعمـــدة
به فقد بلغوا الأمر الذي كادوا

وقد يتعرض الشعراء لمعاني من هذا الباب في قصائد المدح، حين يعدون مناقب ممدوحيهم من ملوك ورؤساء، فيأتون على أشياء وأوصاف مما يستحسن من سياستهم وتدبيرهم كما في قول المتنبي يمدح سيف الدولة :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكـرام المكـارم
وتعظم في عين الصغير صغارهـا
وتصغر في عين العـظيم العظـائم
يكلف سيف الدولة الجيش همه
وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم
ويطلب عند الناس ماعند نفسه
وذلك مــالا تدعيـه الضراغـــم

وقوله فيه عند ايقاعه ببني كلاب.

ترفـــق أيها المولى عـــليهم
فـإن الرفـق بـالجاني عتـاب
وماجهـلت أيـاديك البـوادي
ولكـن .ربمـا خفـى الصواب
وكم ذنب مولــده دلال
وكم بعـد مولـده اقتـراب
وجـرم جـره سفهـاء قـوم
فحـل بـغير جارمـه العقـاب

أما أن تتمحض القصيدة كلها لهذا الغرض، وهي من الطوال الجياد، فتبدىء فيه وتعيد، ويتفنن صاحبها في أساليب القول، من الخطاب إلى الغيبة، ومن المدح إلى النصح، ومن ضرب المثل إلى إبراز المعقول في صورة المحسوس، مع الالمام بمجمل قواعد تدبير الملك وأصول السياسة، وتعليلها وبيان حكمتها، والمحافظة على وحدة الموضوع بحيث لاتخرج عنه ولاتتخبط فيه، بل تسير على النهج اللاحب والتخطيط الواضح، فانا لانجد ذلك إلا في قصيدة أنجم السياسة هذه، التي نقدمها لدارس الأدب العربي ومؤرخيه، وننفض عنه غبار الاهمال والنسيان. وننشرها كاملة غير مقطعة، منسوبة محققة، لا كما نشرت من قبل ضمن إحدى المقامات الأدبية، من دون تنويه بها ولاتنبيه على صاحبها كما يتبين مما ياتي.

من هو صاحبها ؟

الحسن والاحسان قد يكونان مصيبة على صاحبهما، ولذلك وقع لهذه القصيدة ماوقع لقصيدة الشهاب الاعزازري التي ادعاها فيما قبل سبعون شاعرا، وهي النونية التي أولها :

صاح في العاشقين يالكنانة
رشأ في الجفون منه كنانة

وقصيدة أنجم السياسة لم يدعها أحدٌ ممن نسبت إليه، فيما نظن، ولكن الناس نسبوها، حسب ما اطلعنا عليه، إلى ثلاثة أشخاص من أهل العلم والأدب.

(أولهم) صاحبها الحقيقي وهو الوزير أبو محمد ابن المالقي
(وثانيهم) لسان الدين ابن الخطيب الشهير.
(وثالثهم) الرئيس أبو القاسم بن رضوان النَّجاري.

فأما لسان الدين فقد نسبها إليه شارحها محمد بن عبد الله الدمناتي بإشارة من ابن عمه الفقيه القاضي الأعدل أبي العباس أحمد بن عبد الرحمان الدمناتي القاضوي الذي ندبه إلى شرحها نجل السلاطين الكرام، سليل سيد الأنام، مولانا أبو عبد الله هشام، كما ورد في طالعة الشرح وصفا للاثنين.

ولاشك أن هذا الأمير هو ابن السلطان مولاي سليمان العلوي، فالشارح إذن متأخر، من أهل القرن الثالث عشر.

ويقع هذا الشرح في كراسة ونصف، لأن القاضي المنتدب له، الذي وكل المهمة إلى ابن عمه المذكور، أشار عليه بأن يقتصر على بيان معنى البيت واعرابه من غير استطراد لما يناسبه من آية أو حديث أو خبر أو غير ذلك. ولعلها إشارة الأمير هشام نفسه الذي كان يهمه فهم ألفاظها وتصور معانيها فقط، ولذلك قال هذا الشارح. «ولم أستطلع لها ديوانا من دواوين العرب، ولانشرت لأجلها مصنفا من مصنفات الأدب» إلخ وسمى شرحه بالمواهب الربانية في شرح قصيدة السياسة السلطانية.

ويظهر أنه لم يكن يعرف أن اسمها أنجم السياسة والا لكان سمى شرحه بما يوافق هذا الاسم.

كما أنه بدأ بالشرح من البيت الخامس عشر، وترك الأبيات الأربعة عشر التي تتضمن مدح الملك المخاطب بها، فاما أنه طرحها لعدم اهتمامه بمضمونها، واما انه لم يطلع على هذه الأبيات لأنها تحذف من بعض نسخ القصيدة. وبالجملة فهو شرح مختصر جدا، لايزيد على تفسير الألفاظ اللغوية وتوضيح معاني الأبيات بعبارات مفهومة، وهو وان كان له خطبة ومقدمة، فقد انتهى بغير خاتمة، وكذلك لا يعرف تاريخ كتابته لا تأليفا ولا نسخا، وخطه مغربي جميل، وأبيات القصيدة المشروحة فيه

مكتوبة بمداد أحمر، وهي في بعض أوراقه لم تكتب، فبقى مكانها أبيض، والمهم أنه نسب القصيدة للفقيه الأديب البارع الاريب الكيس اللبيب سيدي محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب، على حد تعبيره، وهذا هو الاسم الكامل للسان الدين ابن الخطيب.

والشرح الموصوف يوجد ضمن مجموع خطي لصديقنا الأستاذ البحاثة السيد محمد المنوني، وقد أعارني إياه لما علم باهتمامي بهذه القصيدة، فله الشكر الجزيل.

ونلاحظ (أولا) أن هذه القصيدة لاتوجد في ديوان لسان الدين المسمى بالصيب والجهام والماضي والكهام الذي جمعه بنفسه وأودعه مختار شعره. وهو او مايوجد منه على الأصح مايزال مخطوطا، ولكن هذه القصيدة ليست من محتوياته.

(وثانيا) إن الذين ترجموا لابن الخطيب وعنوا بذكر آثاره المنثورة والمنظومة، قديما وحديثا لم يشيروا إليها إطلاقا، وأكفاهم وأوسعهم إحاطة بهذا الغرض العلامة المقري صاحب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب فإنه استوعب الكلام على التعريف بلسان الدين والتنويه بإنتاجه الرفيع نظما ونثرا في مختلف المواضيع ولم يعرج على هذه القصيدة ولم يرد لها ذكر في كتابه الضخم، وهي ليست مما يهمل أو ينسى لو كانت له، وكان هو صاحبها فقد ذكر من غرر قصائده ومقطعاته

وأبياته الكثير الطيب، مشيدا بها غير قاض العجب من ملكة ابن الخطيب وشاعريته، فهل من المعقول أن يتغافل عنها، وهي القصيدة العصماء، والدرة الفريدة ان وقعت له وثبت عنده أنها من نظم ابن الخطيب ؟..

(وثالثا) اننا عند تحليل هذه القصيدة والنظر في أسلوبها، نجد أن نفسها يختلف عن نفس ابن الخطيب ونظمها غير نظمه، فقد امتازت بالسلاسة والوضوح، ونزعت منزع العلماء في ترتيب الأفكار وتفصيل الألفاظ على قد المعاني مع الاستشهاد ببعض الحقائق العلمية عند الاقتضاء، في حين أن أسلوب ابن الخطيب الشعري يميل إلى الجزالة والقوة وينهج نهج الشعراء في التخيل والتمثيل، وهو على العموم يحتاج إلى تأمل وبعد نظر في إدراك معانيه والالمام بمغازيه، والقصيدة المعنية ليست كذلك.

ولم ينفرد الدمناتي بنسبة قصيدة أنجم السياسة إلى ابن الخطيب، فقد أخبرني المؤرخ الكبير الأستاذ محمد عبد الله عنان أنه وقف على مقامة سياسية منسوبة إلى ابن الخطيب في المكتبة الوطنية بالجزائر، ضمن مجموع خطي، وأنه اشتبه فيها لأنها لاتوجد بين تراث ابن الخطيب الذي نسبه إليه مترجموه، ومن وصفه الذي وصفها به، رجحت أنها المقامة المسماة بحضرة الارتياح المغنية عن الراح للقاضي ابن أبي حاتم العاملي المتوفى سنة 815. وأخبرته أنها مطبوعة بتونس سنة 1331، ووجهتها له ليقارن بينها وبين المخطوطة المشار إليها، فإذا هي هي كما أجابني بذلك بعد اطلاعه عليها

والمقصود من هذا أن قصيدة أنجم السياسة ذكر في اخر هذه المقامة، على أنها ماأنشده بطلها للملك الذي أنشئت المقامة له، مقتصرا على أربعة عشر بيتا من أولها، وهي التي يخاطب فيها صاحب القصيدة الحقيقي الملك الذي قدمت له. وبعد محاورة نثرية بين بطل المقامة وملكها، توبع إنشاد القصيدة إلى النهاية.

فمن ورود هذه القصيدة في مقامة حضرة الارتياح، مع نسبة هذه المقامة في بعض النسخ إلى ابن الخطيب، توهم من توهم أنها له، كشارحها الدمناتي، لاسيما وهو يبتدئها بالبيت الخامس عشر الذي استونف إنشادها منه في المقامة من غير تفطن إلى أولها الذي اقتطع في ابتداء الانشاد منها. وهكذا تُدووِلَت عند بعضهم، وتحت يدنا نسخة منها مستقلة، غير نسخة الشرح. انما تبدأ بالبيت الخامس عشر «لايقال انها لذلك تكون من نظم صاحب المقامة القاضي ابن أبي حاتم، لأنا نقول عليه :

(أولا) ان أحدا ممن نقلها أو شرحها لم ينسبها إليه، وأكثر مانسبها الناقلون لصاحبها الحقيقي أبي محمد عبد الله ابن المالقي، ونسبت لابن الخطيب في بعض النسخ، وفي شرح الدمناتي كما مر آنفا، ونسبت لأبي القاسم بن رضوان في شرح مجهول المؤلف كما سنبنيه قريبا. وأما ابن أبي حاتم صاحب المقامة، وان نقلت عنه فيما نظن، فليس هنا من نسبها إليه، وبيدنا ست نسخ لها غير النسختين المنسوبة إحداهما لابن الخطيب عند شارحها الدمناتي، والأخرى

لابن رضوان عند شارحها المجهول، وليس في واحدة منها ذكر لابن أبي حاتم أو نسبة إليه مما يدل على أن من نقلها عنه، عرف أنه انما أنشدها انشادا ولم يكن هو الذي نظمها.

(ثانيا) ان أوصاف الملك الذي أنشأ له ابن أبي حاتم مقامته، تُباين كل المباينة أوصاف الملك الذي نظمت له القصيدة، فذاك عربي بين أعجام، نشأ نشأة متصابية مستهترة، ولما أفاق من سكرة شبابه، التمس من يأنس به من أبناء بلدته، فحضر لديه وفد من العرب، هو الذي أنشئت المقامة على لسان أفراده. والملك المخاطب بالقصيدة على خلاف هذا كله، كما يفهم من الأبيات الأربعة عشرة الأولى التي قيلت في خطابه. فواضح إذن أن صاحبنا القاضي ابن أبي حاتم إنما أنشد هذه القصيدة في ختام مقامته ولم ينظمها.

أضف إلى ذلك أن المقامة كلها كتبت بطريقة الالتزام، نثرها وشعرها، فقد كان أفراد الوفد العربي الذي حضر لدى الملك المذكور على عدد حروف المعجم، وكان كل فرد منه يخاطبه بنبذة من النثر المسجوع يذكر فيها اسمه ونسبه واسم جاريته، مع ضرب مثل في شؤون السياسة وتدبير الملك، ملتزما في ذلك كله الابتداء بالحرف الأول من اسمه، ثم ينشد قطعة من الشعر في التغزل بجاريته، لاتتجاوز أربعة أبيات، ولكنها تلتزم نفس الحرف في أول كل بيت واخره.. وهكذا جاءت المقامة مثقلة بالصنعة البديعية من أولها إلى آخرها، وليس فيها مما عرى عن هذه الصنعة إلا القصيدة التي نحن

بصددها، وقطعة شعرية في أول المقامة هي ولاشك من نظم صاحبها، وبيتان في آخرها معروفان اقترح على المؤلف تخميسها الخ. وهذا مما يدل على أن كاتب المقامة حين أورد القصيدة انما كان منشدا لا ناظما لمخالفتها لطريقته، وعدم شبهها بصنعته.

وإلى هذا فقد نسبت القصيدة إلى شخص ثالث هو الرئيس أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري المالقي صاحب القلم الأعلى في دولة بني مرين[1] على ماألمعنا إليه سابقا. والذي نسبها إليه صاحب شرح مجهول، على هذه القصيدة، يوجد بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (ك 932) ولكن الموجود منه انما هو شرح البيت الأول.

ومن العجيب أنه ذكر استقضاءهُ بجبل طارق وامتحانه بالسجن في فاس، مدة طويلة، قال : كما لمح لذلك بقوله في القصيدة : تفقد السجن... البيتين. وفي السجن الف — كما يقول هذا الشارح — تأليفه في الاعتقال، وذكر فيه مقامات أنشأها وهو بالسجن، ومن جملتها مقامة حضرة الارتياح المغنية عن الراح، وجعلها مقصدين ! مدح السلطان وبسط الكلام على سياسة مملكته.

وفي مقدمة هذاالشرح كلام نفيس في مدح العلم والمعرفة وذكر السياسة وأصولها، جاء في أثنائه قوله : ومن أجل لمعها البارقية،

(1) تنظر ترجمته في جذوة الاقتباس، ونيل الابتهاج والتعريف بابن خلدون وغيرها.

السياسة المالفية، فلقد أبدع فيها صاحبها ماشاء، وميز في فوائدها بين الخبر والانشاء، إلا أنها لازالت عروسا في خدرها، بخاتم ربها من أبى عذرها. إلخ.

ويظهر أن هذا الشارح اشتبه عليه أمر رئيس الكتاب ابن رضوان بالقاضي ابن أبي حاتم. فالمعروف أن هذا الأخير هو الذي استقضى بجبل طارق، وامتحن بالسجن في فاس، على حسب ماجاء في التعريف به على ظهر نسخة المقامة المطبوعة باهتمام العلامة الأديب السيد محمد بن قاسم البادسي الأنصاري الأندلسي الفاسي... والا فإن صاحبنا ابن رضوان لم يذكر في ترجمته أنه ولي القضاء أصلا بجبل طارق ولا بغيره[1] ولا ذُكر أنه امتحن بالسجن في فاس ولا في غيرها فلعل الاشتباه الذي وقع له في ترجمته، هو الذي جعله ينسب القصيدة إليه بحكم أنها واردة في المقامة التي هي من تأليف القاضي ابن أبي حاتم، قاضي جبل طارق الممتحن بالسجن في فاس على ماذكرناه خصوصا مع نسبة ابن رضوان إلى مالقة والقصيدة كذلك منسوبة إليها.

وحيث تبين الخطأ في ترجمة ابن رضوان، فإن الخطأ في نسبة هذه القصيدة إليه أبين، من حيث أن أحدا لم ينسبها إليه ومن حيث شهرة نسبتها إلى غيره، وهو مانزيده توضيحا فيما يلي :

---

(1) نعم استنيب في القضاء بفاس مدة كما عند ابن الآبار في مستودع العلامة ولكن النيابة غير الولاية.

فبعد استبعاد نسبتها إلى كل من ابن الخطيب وابن رضوان، بقى معنا ابن المالقي، وهو صاحبها الحقيقي في نظرنا.

(أولا) لأن بيدنا ست نسخ خطية غير نسختي الشرحين المذكورين، أربع منها تنسبها له، وواحدة تنسبها لابن الخطيب وهي تبدأ من البيت الرابع عشر، وقد أشرنا إلى الشُّبْهة في ذلك، عند ملاحظتنا على نسبتها لابن الخطيب. والنسخة السادسة غفل عن النسبة... فأكثر النسخ إذن على أنها لابن المالقي.

نعم في نسختين من النسخ الأربع جاءت النسبة هكذا : للقاضي أبي عبد الله المالقي، وفي النسختين الباقيتين لأبي عبد الله المالقي بدون وصف القاضي.

وصاحبنا ابن المالقي لم يل القضاء كما سيتبين من ترجمته الآتية، هو أبو محمد عبد الله، لا أبو عبد الله، ولا يبعد أن يكون وقع في آسمه تحريف أو تخفيف، فصار أبو محمد أبا عبد الله، لاسيما وهذه النسخ كلها لم تذكر من أين نقلتها ولا من نقلها حتى نعتمد نقلها في شيء من ذلك. غاية الأمر أنها كلها تنسبها لمن ذكر. فأما وصف القاضي في بعضها فلعله أتى من عدم التمييز بينه وبين بلديه ومُعاصِره وسميِّه عبد الله بن عبد الرحمان المالقي الذي ولى القضاء لعبد المومن الموحدي وولده يوسف... هذا ان لم يكن هو نفسه ولى القضاء ولم نطلع على ذلك.

(ثانيا) ان وصفها بالسياسة المالقية كما مر في الشرح المجهول

المؤلف، وتسميتها بأنجم السياسة، مما يرجح أنها لشخصية سياسية من أهل مالقة، لاعلمية أو قضائية فقط، وليس عندنا ممن لعب دورا سياسيا هاما بصفته وزيرا وأكثر من وزير في دول المغرب، وهو مالقي إلا صاحبنا أبو محمد ابن المالقي الذي نعتقد أن هذه القصيدة له، فقد كان بالوصف الذي ذكرناه في دولة الموحدين أيام عبد المومن وولده يوسف. والمكانة التي كان يحظى بها لدى هذا الأخير تخوله أن يقول هذه القصيدة ويخاطب بها مخدومه الذي كان من أهل العلم والحكمة والسياسة، وكان من خاصةالعلماء والأدباء والمثقفين.

(ثالثا) قال المراكشي في المعجب، وهو يتكلم على يوسف بن عبد المومن : «ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب، ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر، إلى أن اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك من المغرب قبله[1]، وهذا مايشير له البيت التاسع من القصيدة في خطاب ملك قدِّمت له فيما نعتقده، وهو يوسف بن عبد المومن. لأن في أيامه برزت شخصية ابن المالقي :

جمعتنا من تفاريق البلاد فلم
يفت لنا أمل الا جمعناه

(1) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ص.145 طبعة المغرب.

(رابعا) جاء في ختام القصيدة لمحة وعظية مؤثرة تضمنت هذا البيت :

للأشعرية فينا مذهب عجب
ومن سعادتنا أنا اعتقدناه

ولايخفى مافي ذلك من الاشارة إلى ظهور مذهب الامام أبي الحسن الأشعري وانتشاره في المغرب على يد المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية. وتقبُّل الناس له ولاسيما بطانة الخلفاء الموحدين ورجال دولتهم القائمين بدعوتهم وقد كان ابن المالقي من صدورهم وأعيانهم ناهيك أنه كان يلي لهم مشيخة الطلبة، وهو منصب خطير يوازي منصب وزير الدعاية وزير التربية في الدول ذات السياسة الموجَّهة والمذهب الخاص، فليس من الأمور العفوية إذن، ذِكْرُ المذهب الأشعري في القصيدة والنص على أن اعتناقهم إياه من سعادتهم، فإن في ذلك تلميحا لما كان عليه المغرب من اتباع مذهب السلف قبل قيام دولة الموحدين،وماجاء به ابن تومرت من مخالفة لذلك حتى انه كان يسمي المرابطين بالمجسمين، وسمى أتباعه بالموحدين لأخذهم بمذهب الأشعرية المؤولين للمتشابه والنصوص الموهمة للتشبيه.

إن هذه الالتفاتة للمذهب والاشادة به، مما يحل من صاحب الأمر محل الرضى والاستحسان. وقد كان ابن المالقي يعرف ذلك ويشعر به تمام الشعور، بل ربما أوحى به لغيره. يدلنا على ذلك في

الجملة ما جاء في كتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة، وقد أنشد قصيدة للشاعر أبي محمد بن حربون في تهنئة يوسف بن عبد المومن بوقعة على المخالفين بالمغرب، فلما أنهاها قال : «قال الفقيه الخطيب أو محمد المالقي رحمه الله : استحسن الأمر ــ أدامه الله ــ لأبي محمد هذه القصيدة حين صاغ فيها المذهب المراد، وقصد فيها الاقتصاد، وسبق أصحابه الشعراء القُصَّاد، وتقرب للأمر العزيز ــ أدامه الله ــ بأغراضه النبيلة فعلا ذكره وشاد...»[1] ولم يكن الغرض المذكور سوى أن يبتدىء الشعراء قصيدتهم بالحمد لله على طريق الكتابة، فكيف بمن يتعرض لمذهب الدولة الاعتقادي وينوه به ويذكر أن اعتقاده من السعادة ؟

(خامسا) ترجمة ابن المالقي التي تُظهر مؤهلاته الأدبية وقربه من الخليفتين عبد المومن ويوسف وتقديمهما له ومهمته في البلاط الموحدي، هي مما يؤكد أنه المراد عند نسبة قصيدة أنجم السياسة لابن المالقي أو أبي عبد الله المالقي على ماقدمنا من تخفيف اسمه أو تحريفه... وهاهي ذي باختصار كما وردت في التكملة لابن الابار[2].

«عبد الله بن محمد بن عيسى الأنصاري يعرف بابن المالقي أصله منها وسكن مراكش، يكنى أبا محمد، أخذ في صغره عن أبي الحكم

---

(1) المنّ بالامامة، الجزء الثاني ص 367

(2) ج 2 ص 486 طبعة مدريد

بن بُرجان، واختلف إليه بقريته من نظر طليطلة من شرف اشبيلية، ولازمه وبرع في علمه، وكان فقيها نظارا خطيبا مفوها، ذا حظ من الأدب وافر، ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة، ورأس طلبة حضرته مراكش، وتوفي بها سنة 574. عن ابن عمر. وقال ابن صاحب الصلاة : توفي سنة ثلاث وسبعين وأثنى عليه كثيرا».

وجاءت في البيان المعرب لابن عذارى بصورة أكثر تركيزا على وظيفته الرسمية مع وصفه بالمالقي بدون ابن وهذا نصها (وفيها — يعني سنة 574 — توفي أبو علي بن عزُّون والقاضي أبو القاسم بن فضيل، وأبو عبد الله المالقي شيخ طلبة الحضرة بمراكش، وكان من أهل العلم والدين والحفظ لحديث رسول الله ﷺ، ولم يزل عند الخليفة أبي محمد عبد المومن في حظوة مكينة، وكذلك عند الخليفة أبي يعقوب، وكان يرفع له المسائل، ويتناول توصيل الوسائل، ويرفع أشعار الشعراء، وإخراج الجزاء، وتقدم للخطابة والصلاة بأمير المومنينَ، وإذا وصل كتاب فتح أو غيره قرأه إلى غير ذلك وكان له أدب غض وشعر في الزهد ومكفرات (الذنوب) ولم يزل في عز وتمكين إلى أن توفي رحمه الله)(1).

ومن الجدير بالذكر أن مشيخة الطلبة هذه، مما أحدثه عبد المومن، وهي مؤسسة تضم أهل العلم والحديث الذين هم ركائز الدولة، وبلغت من عناية خلفائه بها وبرجالها ما أثار عليها حسد

---

(1) البيان المعرب ج 4 ص 112

وجوه الموحدين وزعماء قبائلهم[1]، فلا جرم أن يكون لرئيسها هذه المنزلة الكبيرة في الدولة.

ومن شاء فليتبع نشاط رئيسه في البلاط الموحدي، وما كان له فيه من الحركة الدائبة أيام الخليفتين عبد المومن ويوسف، في كتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة. ويهمنا أن ننقل منه هذه الفقرة خاصة، وهي المتعلقة بحوادث سنة 560، وهي التي تقول[2] ! «وفيها اختص الأمير الأجل الأعدل بوزارته أبا العلاء إدريس بن جامع وقربه وأحبه وماشى معه الفقيه أبا محمد المالقي في المسائل» فهي تدل على أنه كان مستوزرا أو نائب الوزير الأول.

وعلى كل حال فهذه هي ترجمة صاحبنا ابن المالقي ومؤهلاته التي تجعل منه رجلا كفؤا جديرا بأن تنسب إليه قصيدة أنجم السياسة، ويكون هو ناظمها وناسج بردها، لاينازعه في ذلك أحد ممن نُحلت له وحُملت عليه، الا أن يظهر ما يخالف ذلك من نقل صحيح وعزو ثابت وتوثيق راجح.

---

(1) انظر المعجب ص 172

(2) المن بالامامة ج 2 ص 285

نسخها واسمها

ماوقفت عليه من نسخ هذه القصيدة ثمان :

1) نسخة مكتبنا الكنونية، وهي واقعة ضمن مخطوط يشتمل على عدة مؤلفات، وخطها مغربي واضح ومشكول شكلا صحيحا وتحمل هذا العنوان بعد الحمد لله : «هذه القصيدة تسمى أنجم السياسة للعلامة الأجل أبي عبد الله المالقي رحمه الله». وتقع في خمس صفحات، ويمكن أن تكون كتبت في القرن الماضي.

2) نسخة منفردة مجلدة على حدة، من محتويات الخزانة العامة بالرباط. وهي مكتوبة بخط جميل داخل جداول ملونة وفي أولها بعد البسملة والصلاة (ترجمة) كما يعبر النساخون عندنا أي زخرفة مكتوب داخلها (أنجم السياسة للقاضي أبي عبد الله المالقي) وتمتاز هذه النسخة بطرر وتعاليق مفيدة جدا، ويمكن أن يستخرج منها شرح للقصيدة، ويظهر أنها مما كتب في أوائل هذا القرن، فهي حديثة جدا، وتقع في إحدى عشرة صفحة لأن بين أبياتها بياضاً كبيرا خصص لكتابة ماخفَّ من الشروح.

3) نسخة تحمل عنوان أنجم السياسة للقاضي ابن أبي عبد

الله المالقي مكتوبة بخط مغربي جميل، وتقع في سبع صفحات وهي حديثة كذلك، من محتويات الخزانة العامة أيضا.

4) نسخة أخرى كتب بهامشها مانصه : «وهذه القصيدة لعلها لأبي عبد الله المالقي تسمى بأنجم السياسة» وخطها لابأس به، وتقع في أربع صفحات، وربما كانت مما نسخ في القرن الماضي، وهي كذلك من محتويات الخزانة المذكورة.

5) نسخة لاتحمل عنوانا ولانسبة، وخطها مغربي جميل، تقع في خمس صفحات، وربما رجعت إلى القرن الماضي، وهي للخزانة العامة أيضا.

6) نسخة تلوح عليها أمارة القِدَم، ولكنها لاتتجاوز القرن الماضي، خطها لابأس به. وتبتدىء من البيت الخامس عشر، وتقع في أربع صفحات، وبآخرها هذه الجملة : «انتهت القصيدة العجيبة، في نصيحة المقام السلطاني للامام العلامة الأديب البارع لسان الدين ابن الخطيب السلماني رحمه الله تعالى وجدد عليه رحمته بمنه ويمنه، وحوله وطوله» وهي بالخزانة العامة كذلك.

7) و 8) نسخة شرح الدمناتي، ونسخة مقامة حضرة الارتياح وهذه مطبوعة، وسبق الكلام عليهما.

ولعل القارىء قد لاحظ أن بعض هذه النسخ فيها تسمية القصيدة بأنجم السياسة وبعضها خال من التسمية، كما أن الشرح المجهول الذي قدمنا الكلام عليه سماها السياسة المالقية، ونشير هنا

إلى أن اسم أنجم السياسة مأخوذ ولاشك من البيت الذي يقول فيه ناظمها :

هاذي (السياسة) لاحت بعض (أنجمها)
ماكل نجم رصدناه قصدناه

وبعد فهذا هو النص الكامل لقصيدة أنجم السياسة، مصححا مقابلا على جميع النسخ المذكورة، ومعلقا على بعض أبياته بما يبين المعنى، ويعرب عن المقصود، حين يكون التعليق لابد منه :

1) ياأيها الملك الباهي محياهُ
أنت الذي تألفُ الأظعانُ مغناهُ

2) أما مقامُكَ فهو الغوث ان قصدت
دارا امرىء بحروب الضيم دُنياهُ

3) وجود كفك جَود[1] فيه غُنيةُ من
قد أجدبت من قِوام العيش يُمناهُ

4) بحسبك[2] النصر من والاك أصبح قد
والاه حباً، ومن عاداك عاداهُ

5) وما عسى تبلُغ الأقوال في ملك
الجدُّ ملّكه والجدُّ والاهُ[3]

---

(1) وجود الأولى بالضم الكرم، والثانية بالفتح : المطر.

(2) في جميع النسخ فحسبك بالفاء وفي طُرَّة احداها بحسبك بالباء نسخة هي أنسب

(3) في جميع النسخ ولا له بالشرير وماخترناه هو ما في النسخة السادسة

6) اليـمُّ راحتُـــه والحلـم راحتُـــه[1]
والأمـن ساحتــه واليُمـن لقيـــاهُ

7) والمجد منصبُه والحمـد مكسبُـه
والسعـد يصحَبُه والوفـد يَـغشَاهُ

8) لـو الأقـاليم عـمَّ الجورُ سبعتَهـا
واستنجدتـــه لجلاَّه وأجـــلاهُ

9) جمعْتنا مـن تفاريـق البـلاد فلـم
يـفُت لنـا أمـل إلا جمعنَــاهُ

10) وخلف كل فتى منا فراخُ قطا
ما حظهم منك إلا ما جلبْناهُ

11) ثغر ملكت بسيف العدل أقرَبَـه
هلاَّ ملكت[2] بسيب الفضل أقْصاهُ

12) إن الملـوك على ماغــابَ غالبـةٌ
بالفضل تُوليه أو بالهول تـغشاهُ

13) ومـا على بلـد أن لاتحلَّ بــه
ومن يديك وفِّي الفضل وافــاهُ

14) من يقصد المكْر بالسلطان ثم يَرى
أن الصنائــع تَحميــه تَحامَـــاهُ

---

(1) في النسخة الثانية : عادته

(2) يعني وصف الكرم الذي لأجله يقصده الضيوف و السيبُ بالباء العطاء وفيه مع سيف جناس

15) وكيف يخذلُ عبد عند نائبة
مولى كفته همومَ العيش كفَّاهُ
16) ياسيداً أحضرتْنا دار مأدبة
على موائد للإكرام دعواهُ
17) لابد من شُكْر ماأوليتَ من نِعم
فالشكر فرض ومن أبداه أدَّاهُ
18) والعبد يعجزُ عن شيء يوصِّله
لشكر مولاه الاَّ نصح مَولاَهُ
19) لايمنعنَّك علم قد سموت إلى
أعلاه من أن تُرى صبا بأدناه
20) والنفس محجوبة عنها سعادتُها
فرب[1] ماحقرتْه ليس الاهُ
21) ولؤلؤ الحكمة المكنون في صدف
خذ مأتى منه واطْرَح ماتغشَّاه
22) لاتكرهَنَّ شراباً حل في خزَف
ليس الإنا ذاتُه ماأنت تُسقاهُ[2]
23) ماالملك إلا عقيمٌ لا ولّى له
مستهدف للأعادي من تَولاهُ

(1) في بعض النسخ لعل ماحقرته وفي الرابعة لعل ماأخطرته ليس إياه
(2) معناه خذ الحكمة ولاتنظر من أي وعاء خرجت

24) فاحفظ بعدل وفضل زَوْرَ طائِره
فالفضلُ والعدل إن تنظُرْ جناحَاهُ
25) واجفُ الجَفا وتوقَّ الظلم أجمعه
فليس يسعَد إلا من توقَّاهُ
26) ولاتَذَرْ دعوةَ المظلوم سائبةً
لاسيما ان يكن من لاإلٰه[1] جاهُ
27) إذا تعمَّدتَ إنسانا بمَظْلمة
ولم يجدْ ناصراً فالنَّاصرُ الله
28) وارفع يدَ العامِلِ العادِي الذي كثرت
به إليك الشكايا من رعَاياهُ
29) لاقرَّب الله دارَ المرء يجعلُني
أبيعُ من أجله ديني بدُنياه
30) وشاور العلماءَ المستضاءَ بهم
فإن مَعذِرة السلطان شُوراهُ
31) وكلُّ أمر له قومٌ به عُرِفوا
فاندُب لكل مهمّ أهلَ بَلْواهُ
32) لايعرفُ الشوق إلا من يكابده[2]
جئنا به مثلاً كما سمعناهُ

(1) هذا البيت ساقط من النسخة الأولى والثانية.
(2) هذا صدر بيت سائر وعجز : ولا الصبابة إلا من يعانيها

33) وفّر جنودَك بالأرزاق تُوسِعُها
فالزرع يزكُوا إذا وفرت سُقياهُ

34) وافعل بهم وادعاً ماأنت فاعله[1]
فأنت يوم اشتعال الحرب تجزاه

35) وارْعَ الرعية في ضيق وفي سَعةٍ
ورُدَّهم لطريق الرشد إن شاهو

36) ولاتُحملْهم إصْراً ولا رهقاً
فإنهم في اضطراب الحال أشباهُ[2]

37) ولّ الرسائل ذا عقل ومعرفة
بالكُتب إن كنتَ للاسرار تَرضاهُ

38) واخترْه براً سليم الصدر واسعَه
فالمال والروح في مضمون يُمناهُ

39) وحاجب الملك ان فكرتَ حاجِبُه[3]
فانظر لها كياً طلْقاً محيَّاهُ

40) ان قلتَ بابُك معنى فهو لفظتُه
أو قلت بابك لفظ فهو معناهُ

---

(1) أي في حالة الأمن

(2) في النسخة الثانية أشياء بالياء وكتب عليا : جمع شياه الذي هو جمع شاة يعني أن الايالة كالغنم والأمير راعيها فإذا حملها مالاتطيق ضيعها وضاع هو بسبب ذلك

(3) أي هو له كحاجب العين

41) ولِّ الجِبايةَ مـن قـلَّت جنايتُـه
في ماله[1] وربَتْ في اليُسر كفَّـاهُ
42) فطبعُـه مانـع تبذيـرَ حاصلهـا
ومالُـه راقـع تمزيـقَ عُـدْوَاهُ
43) أمِّرْ على الجيش من ترجُو كفايتَه
ودَعْ سَواه وان ناجتك قُربـاهُ
44) فرايةُ الـنصر مكتـوب بطـرَّتها
بيت على إثر هذا قـد كتبنـاهُ
45) ماللجبَـانِ ومـالي لستُ أعرفـه[2]
أما الشجـاع فيهْـواني وأهـواهُ
46) اجعل لنفسك جاسوساً تُفيدك ما
يدور في النـاس عيْناه وأُذْنـاهُ
47) واحذَرهُ أن يجعل التعريف مكْسبَه
وذا التحـذُّر بالإغنـاء تكفـاهُ[3]
48) لاتبسْخـرنَّ بأمـر هـانَ أولـه
إن الحريق بقَـدْح الزَّنـد مبْـداهُ
49) استعمِل الماجدَ المرهـوب جانبـهُ
وحـط بالعمـل الملحـوظ عليْـاهُ

---

(1) أي مليا غير مسرف في ماله

(2) في بعض النسخ لست نسبته

(3) يريد اغن المخبر ليلا يجعل وظيفه وسيلة للكسب.

50) فالطِّرفُ أن تخلُ عن قيدٍ قوائمُه
أزرى بـــائِسه عَــدواً فأعيَـــاهُ
51) علِّق بعفوك مَن يجنى عليك كما
تعلـقت بِطبيب الـوقت مَــرضاهُ
52) فالضربُ[1] للعبـد أدنى مايليـقُ بـه
والعفــو للحــر أعلى ماتوخَّـــاهُ
53) لاتَسفِكــنَّ دمـــا إلا بواجبِــــه
فمَــن أراقَ دَم العُــدوان أرْداهُ
54) ولابْن عبَّاس الحَبْر الذي شُهرت
علومُــه مــذهبٌ فيــه عرفنـــاهُ[2]
55) إن أظلَمَ الخطبُ واعتاصتْ جَليَّتُه
وأشكلت من طريق العلم فُتيـاهُ
56) سلِّـم أمُـورك للـرحمان مُحتسِبـــاً
وارض القضاءَ فمن يرضاهُ أرضاهُ
57) واصبِر فما شدَّةٌ إلا لها فــرجٌ
وراكِبُ الصبر لاتكبُــو مطايَـــاهُ

(1) في أكثر النسخ فالذهب للعبد، ونسخة الضرب أولى لأنها تتضمن معنى تكرر في الشعر العربي مثل : الحريحي والعصى للعبد..
(2) مذهب ابن عباس في قاتل النفس أنه لا تقبل له توبة أخذا من الآية (ومن يقتل مومنا متعمدا فجزاؤه جهنم) الآية، ولكن الجمهور على خلافه وحمْل الآية على المبالغة في الزجر

58) اردَع بعدلك من طمَّت بوائقُـه
وارفُق بمَن ندرت منه خطايَـاهُ
59) ودارأْ عقُوبةَ من قد ظلَّ مُستَتِراً
كما إذا أحـدثَ السِّنَّـورُ غُطـاهُ
60) لاتأمنَـنَّ مـن المَوْتُـور بائقـةً
فمـا نَساهُ مـدى الأيـام أنساهُ[1]
61) واعطِ نفسك حظا مـن اراحتها
فالنـفسُ بوحشهـا كـدّ وإكـراهُ
62) وإن سما لك شوق في مُخذِّرة
أو شادن كُحِلت بالسِّحر عيناهُ
63) فاكتُـم هـواهُ ولا تُظهـر محبَّتـه
فـالحب ذل وعـزٌّ الملك يأبـاهُ
64) إن السِّعايةَ عار فاجفُ صاحبَها
وفـرَّ منـه فـإن الله أخـزاهُ
65) وزَارعُ الخير من يُحْبِبْه شارَكَـه
وزارعُ الشر مـن يُحبِبْـه سَاوَاهُ
66) واذكُـر يتيمـاً ومسكينـاً وأرملـةً
فمـن تذكرتـه فـالضر يـنساهُ[2]

---

(1) الموتور صاحب الثأر، والنساء بالفتح التأخير أي أن طول المدة لا تنسيه ثاره.

(2) المراد من تذركته بالإحسان والمواساة.

67) وامدُدْ يد البرِّ والرحمِ لذي كِبَرٍ
دنَت خُطاه لدهر قد تخطَّاهُ

68) تفقَّد السجن فهو القبرُ ميِّتُه
حيٌّ وأحياؤُه أمثالُ موتاهُ

69) ماكلُّ معتقَل بالعدل معتقَلٌ
كم ساجن غيرَه والسجنُ واتاهُ

70) لاتُنكِرالظلم ممَّن دام في عمل
فإن طُول مَدَاه فيه أطْغاهُ

71) واعزل على الفَور من أسخطتَ حالتَه
ومُهمَلا ول تُرضيه وترضاهُ

72) خزانةُ الكتب أكثِرْ من ذخائرها
فأن أُبَّهة السلطان ذُخراهُ(1)

73) واجلُبَ إليها دَواوِينَ العلوم وما
يُعدُّ من أغرب التصنيف مَنْحاهُ

74) الخطُّ والضبطُ منها روضة أنُف
مما روَاهُ أخو حِذْق وروَّاهُ

75) فالعلمُ إن لم يكن في الصدر أجمَعُه
ففي القراطِيس كُبْراه وصغراهُ

---

(1) كانت عناية الموحدين بجمع الكتب عظيمة وكان لخزانة الكتب عندهم ولاية خاصة لاتستند إلا لكبار العلماء، وانظر ما فعله يوسف بن عبد المومن في هذا الصدد بكتاب المعجب ص 144

76) وكلُّ ماجمَعت كفَّاك من نشبٍ
أو صامتٍ ولو ان الرملَ حاكاهُ

77) بدِّده في بَددِ[1] الأعداء عنك وقل
ليـوم سوءٍ رفعنـا ماجَمعنـاهُ

78) هاذي السياسة لاحتْ بعضُ أنجُمِها
ماكـلُّ نجم رصدنـاه قصدنَـاهُ

79) نَسيمُ علم تمشَّى في رُبى أدبٍ
لو كلُّ وصف وصفناه عَصفناهُ

80) شكراً ونصحاً نفضنا منهما[2] جُرُباً
وبعضُ ماقد نفضنـاه رفضْنـاهُ

81) تِلك المكارِمُ لاقَعْبانِ من لَبـنٍ[3]
عقـلٌ تؤديـه أقـلامٌ وأفـوَاهُ

82) اليومَ قـولٌ وفعلٌ والجزاءُ غـداً
ويْلاه من لم يفكِّرْ فيهِ ويْـلاهُ

83) كأن مانحنُ فيه لم يكـن أبـدا
ومـانَصير إليـه مـا فَقَدْنـاهُ

84) تمرُّ أعمارُنـا مـرَّ السحـابِ ولا
وقتٌ لنا بسوى الدنيـا عَمَرْنـاهُ

(1) أي في تفريقهم
(2) جمع جراب
(3) هذا صدر بيت مشهور لأبي الصلت الثقفي وعَجزُه : شِيبا بماء فعاد بعدُ أبوالا

85) تجاذب للأمـــاني مالـــه طَـــرَف
كـــأنما سالمت عبـــداً منَايـــاهُ

86) نبكي على نزْر دنيا إذ يفوتُ ولو
قـد فاتَنـا الديـنُ رأساً مابكينـاهُ

87) نُمسي ونُصبح من أمرين في غَرر
ذنْب رضيناه أو حـظٍّ سخِطناهُ

88) إذ عمِلْنا بأعمـال الهوى ثَبـتتْ
وإن عقدنـــا لـــه توباً[1]محوْنـــاهُ

89) ولا نصيغُ إلى ماقـال واعِظُنـا
وإن شدَنـــا مغنِّيـــاً سمِعْنـــاهُ

90) الدَّهرُ بالمرء من أُخراه مرتحِـلٌ
ياحسرتـــاه ولازادٌ لأُخْـــراه

91) لاعيشُه هاهنـا تصفُـو مَـوارِدُهُ
ولا هناك مـن الأكـدار صَفَّـاهُ

92) فكم نُغالـط بالحُسنـى نُلِـمُّ بها
جهْواً وأبعدُ نعْت السر حُسناهُ

93) نُخفي القبيح وقد أزرى بحِشْمتنا
والمرءُ يـدْرَى مُسمَّـاهُ بِسِيمَـاهُ

---

(1) التوب : التوبة : قال تعالى (غافر الذنب وقابل التوب) وجاءت في أكثر النسخ بالثاء المثلثة خطأ

94) واللهِ لـولا آيـةٌ منـعَتْ
مِـن القنـوط[1] لما كنـا رجَوْنـاهُ
95) ومالذي يرتجِي مَن يستعين على
أغـراض أعـداءِ مـوْلاه بنُعمـاهُ
96) للأَشعريـة فينـا مـذهَب عـجب[2]
ومـن سعادتنـا أنّـا اعتقدنَـاهُ
97) لوْ كان حتماً مِن اللهِ الوعيدُ لنا
لم يسبِق الغضب المكتوبَ رُحماهُ

---

(1) يشير إلى قوله تعالى (قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله)

(2) مذهب الأشعرية وأهل السنة على العموم أن الله عز وجل لايجب عليه إثابة المطيع ولاعقوبة العاصي وان حكم بذلك. نعم هو تعالى على لايخلف وعده في إثابة المطيع وأما العاصي فهو في مشيئته تعالى إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه، كما قال سبحانه (ان الله لايغفر أن يشرك به، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وهذا مايعنيه الشاعر قد احتج له في البيت الأخير بمضمون الحديث الصحيح «ان رحمتي سبقت غضبي» ويخالف المعتزلة في ذلك أهل السنة فيقولون بوجوب إثابة المطيع وعقوبة العاصي، وهو قول مردود لأن الله لامُكْرِه له، والوجوب في المسألة عرضي لاذاتِي، أي ليس عقليا حتى يقال إنه لايُخلف. وقد قال الشاعر
وانى إذا أوعدته أو وعدتـه لمخلف ابعادي ومنجز موعـدي

قصيدة الواعظ الأندلسي في مناقب عائشة الصديقة

هذه قصيدة أخرى من أروع الشعر، الذي بقي منسياً ولم يعرف طريقاً إلى النشر مطلقاً، وحتى كتب التراجم ودواوين الأدب المخطوطة بَلْه المطبوعة، لم تتضمنه ولاأشارت إليه، فيما نعلم، بعد التتبع مدى طويلاً، وإنما هي من الوِجَادات المنفردة التي عثرنا عليها في بعض المجامع، فألفيناها من الأعلاق النفيسة التي لايصح أبداً أن تكون مهملة، ويخلو ديوان العرب منها.

وهي قصيدة في مناقب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، اشتملت على ذكر فضائلها وفضائل والدها أبي بكر الصدِّيق، ومُجادلة الخصوم المبغضين لها المتقولين عليها، ومُحاجَّتهم بالدليل من الكتاب والسنة، في إيمان صادق ودفاع حار، وبالواقع التاريخي الذي لانزاع فيه من سيرتها العطرة، وسيرة أبيها الخليفة الأول رضوان الله عليه، وكل ذلك بأسلوب بارع وبيان رفيع، ونظم محكم متين. وإلى هذا وبقطع النظر عن كل اعتبار فالقصيدة تعبر عن عاطفة إنسانية رفيعة، لأنها تتخذ موقف المساندة بجنب

سيدة شريفة أثناء أزمة هي أعنف أزمة تمر بها امرأة في حياتها، فتنافح عنها وعن كرامتها حتى تحتفظ لها بسمعتها الطيبة وذكرها الجميل.

ومما أبرَّ به صاحب هذه القصيدة، أنه جعلها على لسان السيدة عائشة نفسها فبعد المطلع الذي يُؤذن بمقصوده، تخلَّص في البيت الثاني إلى إعطائها الكلمة، فجعلها هي التي تُناظر وتُفاخر وتدفع في نحورالاعداء بسلاح الحجة والبرهان الذي يُطوِّقهم الخِزْي والعار، فلو أنها رضي الله عنها نطقت فعلا بشعر في الموضوع، لما زادت على مااحتوته هذه القصيدة، وهي من هي قوة بيان وشدَّة عارضة.

وهذا مما يدل على بلاغة منشئها ومقدرته البيانية، وتمكُّنه من صناعة الشعر فضلاً عن رسوخ قدمه في المعرفة بعلم الحديث والسيرة النبوية والتاريخ وسائر العلوم الاسلامية وإذن فمن هي هذه الشخصية العلمية الكبيرة ؟

صاحب القصيدة

كما أهملت القصيدة أهمل صاحبها، فلم نقف له على ترجمة في كتاب، مما وصلت إليه يدُنا من كتب التراجم الأندلسية والعامَّة. وغاية مانجده مذكورا مع القصيدة هو اسمه المجرد من كل تعريف أوتحديد لعصره بالوفاة أو غيرها، وهو يقع في كل النسخ التي

سنذكرها من بعد، بصورة واحدة هكذا : أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الله الواعظ الأندلسي.

وقد أوحى لنا هذا الوصف من أول وهلة أنه ربما (ورُبّ للتكثير) أطلق عليه في المشرق، لأنه لايصح أن يعرف به وهو في بلده الأندلس، فالأندلسيون يُنسبون عادة إلى قبائلهم أو مدنهم وقراهم، وقلما يجري وصف الواعظ بينهم مقصوراً على شخص بعينه. وبالعكس من ذلك فإن الشخص إذا اغترب كثيرا ماينسى أصله وينسب إلى قطره فقط، والوصف بالواعظ معهود في المشرق متداول، منذ أن تُرك وصف القاصّ الذي لم يُستعمل هو أيضا في الأندلس ولا في المغرب عموماً.

وعليه يكون صاحبنا قد رحل إلى المشرق، وزاول هناك مهمَّة الوعظ فعرف بها ونُسب إلى قُطره الأندلس، وتنوسي نسبُه الأصيل، بل تُنوسيت ترجمته في بلده وفي المشرق، كما وقع لكثير غيره ممن رحل إلى المشرق من المغرب أو إلى المغرب من المشرق، وقد كنا أشرنا إلى هذه الحقيقة في تعريفنا بالواعظ البغدادي صاحب القصائد الوتْريات الشهيرة.

وقد تحقق لنا هذا الاحتمال عندما اطّلعنا على نسخة شرقية من القصيدة كتبت في مصر، وعليها سماع من الشيخ مرتضى الزّبيدي شارح القاموس، متصل بناظمها. وقد جاء في آخر السماع أن الأفضل وزير مصر السُّنّي أجازه عليها بمائة دينار لما بلغته.

وأهمية هذا السماع عظيمة جدا، لأنه أفادنا برحلة المترجم إلى المشرق أو مصر على الأقل، حيث أُطلق عليه اسم الواعظ الأندلسي على مارجحناه آنفا.

وحدد لنا تاريخه أو عصره على الأصح، وهو آخر القرن الخامس وأوائل السادس فإن الوزير المشار إليه توفي سنة 515[1]

وهو الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي، وزَر للمستنصر والمستعلي والآمر من خلفاء الفاطميين بمصر، وأظهر الميل للسنة، وأبطل الكثير من مراسيم الشيعة وكان من العدل وحسن السيرة على صفة جملية[2] فلا غرو أن يُجيزَ شاعرنا على قصيدته في مدح أم المؤمنين عائشة بتلك الجائزة السنية التي تفوق قيمتها المعنوية قيمتها المادية، لاسيما إذا تذكرنا أن الدولة شيعية، وأن رأي الشيعة في عائشة وأبيها ليس بذاك. ولكن الرجل، وإن نشأ في هذه البيئة الشيعية وولي أعظم منصب للخلفاء الفاطميين، لم يكن مغالياً في الانتصار لمذهب الدولة، على ماينبغي للوالي أن يكون، بل إنه كان يميل لمذهب أكثرية الرعية، وهو مذهب السنة، فكانت إجازته للقصيدة تعبيرا عن هذا الرأي فضلا عن تقديره لها ولصاحبها. وقد ثبت في تاريخه أيضا أنه أجرى على العالم أبي بكر الطُّرطوشي في الاسكندرية، دينارين في اليوم، والطُّرطوشي من أئمة السنّة

(1) تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن إبراهيم حسن ص 175

(2) المرجع السابق

المعروفين، فهذا من أكبر الأدلة على تفتُّحه وعدم تعصبه.

والخلاصة أن صاحبنا الواعظ الأندلسي زار مصر في مدة وزارة الأفضل، وهي تمتدُّ مابين الثلث الآخر من القرن الخامس وأواسط العقد الثاني من القرن الذي يليه، ولعله أقام فيها طويلا، مثل الامام الطرطوشي، فإن عبارة السماع القائلة إن الأفضل أجازه على قصيدته «لما بلغته» تدل على ذلك.

ولايبعد أنه قام في مصر بنشاط أدبي مما يرتبط بصفته العلمية، ومن ثمّ اكتسب وصف الواعظ الذي صار حلية لازمة له، فمصر حينئذ كانت بحاجة إلى أمثاله ممن يقفون في وجه الدعوة الفاطمية، ويرفعون علم السنة، كمواطنه الطرطوشي، ولاشك أنه عقد صلاتٍ مع رجالات مصر من أهل طبقته، كما يؤخذ من نص السماع الذي ينتهي برواية القصيدة عنه؛ من طرف واعظ مثله هو أبو طاهر عبد المنعم موهوب اليَزَني الواعظ.

السمـــاع

لايعنينا من السماع المذكور غير دلالته التاريخية، ولذلك فنحن لانهتم بغير هذا الجانب منه، وقد ثبت عقب النسخة الشرقية من القصيدة الموجودة بآخر كتاب (هدايات الباري على ثلاثيات البخاري) لعلي الخلوتي مخطوط بالخزانة العامة بتطوان تحت رقم 60 وهو بخط مصطفى الحكيم الذي وصف نفسه بخادم العلم

بالأزهر، ناقلا له من خط من نقل من خط الشيخ عبد الوهاب الشبْراوي الذي أنشده إياها هو وجماعة من المشايخ الشيخ مرتضى الزبيدي، بجامع شيخو العُمري، بالسَّند المتصل إلى أبي طاهر عبد المنعم بن موهوب اليزني الواعظ : قال أنشدنا أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الله الأندلسي لنفسه في عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأجازه الأفضل وزير مصر السنِّي عليها بمائة دينار لما بلغته رضي الله عنها ورحم الله القائل. وفي السند الشمس الرَّملي وشيخ الإسلام زكرياء الأنصاري والحافظ ابن حجر. وهو مابين قراءة وسماع، ويليه تصحيح بخط الشيخ مرتضى قائلا :

إن الشبراوي المذكور سمع منه القصيدة هو ونحو ثلاثين نفسا ضبطت أسماؤهم على ظهر نسخة الأصل، وذلك يوم الإثنين لليلتين بقيتا من شعبان سنة 1186. ثم بخط الشبراوي سماعان لبعض من أخذها عنه، أحدهما بتاريخ ثاني شوال عام 1189، والثاني بتاسع محرم عام 1202، وبعدهما : كتبها لنفسه محمد أحمد المرصفي الشافعي سنة 1255، ومن خط المرصفي نقل مصطفى الحكيم كل ماذكر فهو أحدث تاريخاً من هذا.

وعلى أي حال فإن هذا السماع بين القيمة الكبيرة للقصيدة، وما تلقاها به هؤلاء الأعلام من حفاوة بالغة، وهي جديرة بذلك.

نسـخ القصـيـدة

وقفت على أربع نسخ من قصيدة الواعظ الأندلسي. الأولى منها، والتي طالت صحبتي لها مذ أصبحتُ أقدِّرُ قدر هذه الكنوز الأدبية، هي نسختي الخاصة التي توجد ضمن مجموع خطي بمكتبتنا الكنُّونية، وهي بخطٍّ مغربي جميل تغلب عليه الصحة، ولايتدنَّى تاريخا عن القرن الثاني عشر، وقد نالت الأرضةُ من أطراف الصفحات الثلاث التي كتبت عليها، ولكنها لم تؤثِّر في نصها تأثيرا يذكر والثانية والثالثة والرابعة هي من محتويات المكتبة العامة بتطوان، وتقع ضمن ثلاثة مجاميع تحمل على الترتيب الأرقام التالية : (656) و 830) و (60) والرقم الأخير هو رقم كتاب هدايات الباري على ثلاثيات البخاري الذي تقدم الكلام عليه، وهو بخط شرقي وسط، وكذلك القصيدة والسماع الذي يوجد عقبها، وهي لاتخلو من تصحيف وتمتاز بزيادة بيت في وصف الصِّدّيق خلت منه بقية النسخ، وهو البيت 24.

أما نسختا المجموعين الآخرين فإنهما بخط مغربي لابأس به، وترجعان فيما نظن إلى القرن الماضي، وتشتملان كذلك على هَنَوات ترجع في الغالب إلى ضعف الثقافة الأدبية عند ناسخيها، كما يمكن أن يقال في النسختين السابقتين ولو أن من يهتم بهذه الآثار لايكون من غير أهل العلم. لكن العلم شيء، والأدب شيء آخر.

وقد قابلنا هذه النسخ بعضها ببعض، واستخرجنا منها النسخة

الصحيحة في نظرنا، ونبهنا في التعليق على الخلاف الجوهري الذي بينها، وشرحنا كذلك مايحتاج إلى الشرح من معانيها وألفاظها، ولاسيما إشارتها المتعلقة بنصوص الكتاب والسنة التي لايتأتّى لكل قارىء العثور عليها.

هذا، وثمَّ نسخة خامسة للقصيدة بمعهد المخطوطات التابع للجامعة العربية لم نطلع عليها لأنها عُبِّئت منذ مدة مع بعض المخطوطات في صناديق لضرورة ما، كما أخبرنا أحد المسؤولين في المعهد، فلم يمكن الاهتداء إليها.

وهذا نص القصيدة :

1) ماشأنُ أمِّ المؤمنين وشاني
هُدِيَ المُحبُّ لها وضل الشاني[1]

2) إني أقولُ مُنبِّهاً عن فضلها[2]
ومُترجِماً عن قولها بلساني

3) يامُبغِضي لاتأتِ قبر محمّدٍ
فالبيتُ بيتي والمكانُ مكاني

4) إنِّي خُصصتُ على نساء محمدٍ
بصفاتِ برٍّ تحتهنّ معاني

---

(1) الشاني : المبغض

(2) عن هنا بمعنى على كما في قول الشاعر :

لاه ابنُ عمك لاأفضلتَ في حسب
عنــي ولاأنت ديَّاني فتَخْزوني

5) وسبقتهن إلى الفضائل كلِّها
فالسبقُ سبقي والعِنان عِناني

6) مَرِض النبيُّ ومات بين ترائبي[1]
فاليومُ يومي والزمانُ زماني

7) زوجي رسولُ الله لم أرَ غيْرَه[2]
الله زوّجني به وحَبَاني

8) وأتاهُ جبريلُ الأمينُ بصُورتي
وأحبَّني المختارُ حين رآني[3]

9) أنا بكرُه العذراءُ[4] عندي سرُّه
وضجيعُه في منزلي قمَران

10) وتكلّم الله العظيمُ بحُجَّتي
وبراءتي في مُحْكَم القرآن[5]

---

(1) في الحديث أنه ﷺ استأذن نساءه أن يُمرَّض في بيت عائشة، فإذن له، وقالت عائشة : قُبِض رسول الله ﷺ بين سَحْرِي ونَحْري

(2) من المعلوم أنها «ض» لم تتزوج بغيره ﷺ.

(3) في الصحيح قال ﷺ لعائشة : أريتُك في المنام ثلاثَ ليالٍ جاءني بكِ الملكُ في سرقةٍ من حرير، فقال هذه امرأتُك، فقلتُ إن يكُنْ هذا من عند الله يُمضِه.

(4) من المعلوم أنه ﷺ لم يتزوج بكراً غير عائشة.

(5) أنزل الله عز وجل في براءتها عشر آيات هي قوله تعالى : «إن الذينَ جاءوا بالافك عصبة منكم» الآيات 11 — 20 من سورة النور

11) والله خفـرَّني[1] وعظَّـم حُرْمَتـــي
وعلى لسان نبيِّـــه بـــــرَّاني[2]

12) والله في القرآن قد لعنَ الـذي
بعـد البراءةِ بالقبيـحِ رمـــاني[3]

13) والله وبَّـخ مـن أراد تنـقُّصي
إفكـاً، وسبَّـح نـفسه في شأني[4]

14) إنِّـــي لمُحصنـةُ الازار بريئـــةٌ
ودليـلُ حُسن طهــارتي إحصاني

15) والله أحصننـــي بخاتم رُسُلِـــه
وأذلَّ أهــل الإفكِ والبُهتـــانِ

16) وسمِعْتُ وحيَ الله عنـد محمّـد
مـن جبرئيـلَ ونـورُه يـــغشاني

(1) بالتشديد، أمنني وحماني، وفي نسختنا ونسخة. 73 خيرني بالياء.

(2) بتخفيف الهمزة

(3) يشير إلى الآية 22 من سورة النور وهي قوله تعالى : «إن الذين يرمُون المحصنات الغافلات المؤمنات لُعنوا في الدنيا والآخرة».

(4) يشير إلى قوله تعالى : «ولولا إذ سمِعتموه قلتم مايكونُ لنا أن نتكلم بهذا سبحانك، هذا بُهتان عظيم» وسبَّح نفسه، هو ما في نسخه 60 وباقي النسخ فيها سبَّح شأنه ولعلها تصحيف.

17) أوْحَى إليه[1] وكنتُ تحت ثيابه
فحنا عليّ بثَوْبه وخَباني[2]

18) من ذَا يُفاخِرُني ويُنكر صُحْبتي
ومحمدٌ في حجره ربّاني

19) وأخذتُ من أبويَّ دين محمد
وهُما على الاسلامُ مُصْطحبان

20) وأبي أقامَ الدِّين بعد محمدٍ
فالنصلُ نَصلي والسِّنان سِنانِي

21) والفخرُ فخري والخلافةُ في أبي
حَسْبي بهذا مَفْخراً وكفَاني

22) وأنا ابنةُ الصدِّيق صاحب أحمدٍ
وحَبيبِه في السرِّ والإعلانِ

23) نصرَ النبيَّ بمالِه[3] وفَعالِه
وخُروجِه معهُمن الأوطان

---

(1) في نسخة 60 أوحى، وفي باقي النسخ يوحي، والإشارة لما في الصحيح قال رسول الله ﷺ : ياعائشة هذا جبريل يقرأ عليك السلام.. الحديث.

(2) بتخفيف همزة خباني.

(3) في الحديث : مانفعني مال مانفعني مالُ أبي بكر.

24) ثانيه في الغارِ الذي سدَّ الكُوى[1]
بردائِـه، أكـرمْ بـه مـن ثـان[2]
25) وجنى العَنا حتى تخلّل بالعَبا[3]
زُهـداً وأذعـن أيما إذعـان
26) وتخلّلتْ معـه ملائكـةُ السمـا
وأتتـهُ بُشرى الله بالـرِّضوانِ
27) وهو الذي لم يخشَ لومةَ لائمٍ
في قتـلِ أهـل البغي والعُـدوان
28) قتل الأولى منعوا الزكاة بكُفْرِهم[4]
وأذلَّ أهـل الكُفـر والطغْيـان
29) سبَـق الصحابـة والقَرابـة للهُـدى
هو شيخهم في الفضل والاحسان

---

(1) جمع كوة يريد ثُقبا كانت في الغار سدها أبو بكر بقطع من ثوبه

(2) يشير إلى قوله تعالى : «ثاني إثنين إذ هما في الغار». وهذا البيت بما انفردت به النسخة 60

(3) يشير إلى نزول جبريل على النبي ﷺ وعنده أبو بكر قد تخلل بعباءة وسؤال جبريل عنه وإجابة النبي له بأنه أنفق ماله عليه يعني حتى افتقر. وفيه أن جبريل أقرأه السلام من الله عز وجل وقال له إن الله تعالى يقول لك أراض أنت في فقرك هذا أم ساخط ؟الحديث، وقد ذكره هو وتخريجه المحبُّ الطبري في الرياض النضرة.

(4) بعد وفاة النبي ﷺ ارتدت قبائل من العرب، وامتنعت قبائل أخرى من أداء الزكاة فقاتلها كما قاتل المرتدين. وبذلك حمى أركان الاسلام من الضياع.

30) والله ما استبقُوا لنيل فضيلة
مثل استباق الخَيْل يوْم رِهانِ

31) إلا وصار أبي إلى عليائِها
فمكانه[1] منها أجلُّ مكان

32) ويلٌ لعبدٍ خان آل محمد
بعداوة الأزواج والأختان[2]

33) طُوبى لمن والى جماعةَ صحبه
ويكونُ من أحبابه الحَسنان[3]

34) بينَ الصحابةِ والقرابة ألفةٌ
لاتستحيل بنزغة الشيطان

35) همْ كالأصابع في اليدين تواصُلاً
هل يستوي كفٌّ بغير بنانِ

36) حصِرتْ[4] قلوب الكافرين بوالدي
وقلوبُهم مُلئت من الأضغان

37) حُبُّ البَتُول وبعلها لم يختلفْ
من ملَّة الاسلام فيه اثْنان

(1) في نسخة 60 بمكانه بالباء، وهو تصحيف.
(2) جمع ختن وهو زوج البنت، وقد سوَّى في هذا بين من يُعادي عائشة وعليا «ض».
(3) هذا تأكيد على مذهب أهل السنة وهو مُوالاة الآل والأصحاب جميعا.
(4) ضاقت.

38) نُسجتْ مودتُهم سَداً في لُحمةٍ[1]
فَبناؤها من أثبت البُنيانِ

39) واللهُ ألَّف بين ودِّ قُلوبهم
ليُغيظ كل مُنافق طعَّان[2]

40) رُحماءُ بينهمُ صفت أخلاقُهم
وخلتْ قلُوبهم من الشَّنآن

41) فدخُولهم بين الأحبة كُلفةٌ
وسبابُهم سببٌ إلى الحرمان

42) جمع الإلٰهُ المسلمينَ على أبي
واستبدلوا من خوفهم بأمان

43) وإذا أراد الله نُصرةَ عبدِهِ
من ذا يُطيقُ له على خِذلانِ

44) من حبَّني فليجتنب من سبَّني
إن كان صانَ[3] محبَّتي ورعاني

45) وإذا مُحبِّي قد ألظَّ بمُبْغضي
فكلاهما في البغض مستويان

---

(1) في جميع النسخ : لحمه بالهاء، والتصحيح من نسخة 60.

(2) في نسختنا ونسخة 730 : طغياني، وليس يشيء. والطعان المراد بها هنا كثير الطعن والعيب.

(3) في نسختنا ونسخة 730 : صافي. وماأثبتناه هو مافي النسختين الأخريين وهو أولى.

46) إني لطيِّبة خُلقتُ لطيِّبٍ
ونساءُ أحمد[1] أطيبُ النسوان

47) إنِّي لأُمُّ المؤمنين فمن أبى
حبِّي فسوفَ يبوءُ بالخُسران

48) الله حببني لقلب نبيِّه
وإلى الصِّراط المستقيمِ هداني

49) والله يُكرمُ من أراد كرامتي
ويُهين ربِّي من أراد هواني

50) والله أسألُه زيادة فضلِه
وحمدتُه شكراً لما أولاني

51) يامن يلوذُ ببيت آل محمدٍ
يرجو بذلك رحمةَ الرحمن

52) صِلْ أمهات المؤمنين ولاتحِدْ
عنّا فتُسلَب حُلَّة الايمان

53) إنِّي لصادقَةُ المقال كريمةٌ
إي والذي ذلّت له الثِّقلان

54) خُذْها إليك فإنما هي رَوضةٌ
محفوفة بالروح[2] والرَّيحان

(1) هكذا في نسخة 60 وفي باقي النسخ : طيب.
(2) في النسخ الثلاث غير 60 : بالراح، وهو خطأ.

55) صلّى الالٰـهُ على النبـي وآلــه

فبهم تشَمُّ[3] أزاهِــــرُ البُستـــــان

(3) في نسخة 60 : تنم، بالنون.

القصيدة الشقراطسية في مدح المصطفى

لاحظت في كتابي «أدب الفقهاء» أن مدح النبي ﷺ، مما اختص به مشائخ العلم وأدباء الفقهاء، وأنه بعد شعراء الصحابة الذين عاصروا ظهور الاسلام كحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، لم يتعاط أحد من شعراء العربية الكبار في العصر الأموي والعصر العباسي هذا اللون من المدح الذي يعد فنا من فنون الشعر العربي، متفردا بما يسجله من صور البطولة والكفاح من أجل إثبات الوجود العربي وإعلان رسالة الإسلام التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور، وأحلت العرب محل الصدارة بين الأمم ذات التاريخ المشرق والمجد العريق، وهو حري أن يصنف في شعر السير والملاحم، ويستظهر به في مقابل الشعر القصصي الذي يوخذ على شعرنا القديم خلوه منه، لاسيما والكثير منه يقع في مطولات رائعة تستوعب ذكر أحداث السيرة النبوية، بأسلوب أدبي ممتع يتخلله الانطباع النفسي للشاعر وتجاوبه مع هذه

(*) أعيدت كتابة هذا البحث باعتماد ثلاث نسخ أخرى من القصيدة الشقراطسية زيادة على النسخ الثلاث التي كتبت عليها أولا.

الأحداث، مما جعل الناس يتغنون به ويتناشدونه في المناسبات القومية والاجتماعية.

وأن ينتشر الشعر في جميع الأوساط، ويحتفل الناس به هذا الاحتفال، دليل على أنه يمس أوتار القلوب، ويعكس شعور الأمة التي قيل فيها، وأنه متميز في بابه، فهو وإن كان مدحا، ليس كسائر الأمداح، لأنه سجل حافل بالمفاخر والمآثر التي يدرك الجميع وكل فرد فرد أنها مفاخره ومآثره هو نفسه.

ومن أوائل مطولات هذا الشعر التي أشرت إليها هناك القصيدة الشقراطسية.

القصيدة وصاحبها

الشقراطسية قصيدة لامية من بحر البسيط في مدح الرسول ﷺ، واستعراض وقائع السيرة النبوية وحياة الدعوة الإسلامية منذ انبلاج فجرها إلى أن عمت أقطار المعمورة، وذلك بأسلوب شعري جميل يتراوح بين التقرير والتخييل. والتصوير والتسجيل مما يتجاوز حدالوصف وأبياتها في فتح مكة أكثر من رائعة وهي تقع في 133 بيت، وشهرت بالنسبة إلى ناظمها أبي محمد عبد الله بن يحيى بن علي التوزري المعروف بالشقراطسي نسبة إلى قلعة قديمة كانت بالقرب من قفصة في تونس تسمى شقراطس، على أنه عاش في مدينة توزر، وكان من فقهائها ونبغ في الأدب والشعر، وله كتاب «الإعلام في معجزات خير «الأنام» وغيره من الأوضاع وأخذ عنه

جماعة من أهل العلم كأبي الفضل ابن النحوي، وحج وزار وأنشد قصيدته هذه بالمدينة المنورة تجاه الروضة الشريفة، وكانت وفاته في ربيع الأول سنة 466 هـ.

وتمتاز الشقراطسية بأنها من الملاحم المطولة التي فتحت باب نظم السيرة واقتحمت معركة الشعر التاريخي بنجاح، فنالت بذلك شهرة كبيرة، وتلقاها الناس بالقبول، ولم يقلل من انتشارها إلا ظهور قصيدتي البردة والهمزية للإمام البوصيري الذي تقفى خطوات الشقراطسي ونسج على منواله، ولكن تاريخ الأدب نسيه أو تجاهله، على أنها خلت مما أخذ على القصيدتين من غلو في بعض أبياتهما.

تقريظ الناس لها واهتمامهم بها

كثر الثناء على الشقراطسية والتنويه بها من جهابذة العلم وعباقرة الأدب، وقدروا مجهود صاحبها سواء من ناحية السبك والصياغة، أو من ناحية المؤدى والمضمون، وهي في الحقيقة حرية بذلك وأجدر بما قيل فيها. فهذا الرحالة العبدري المعروف بعلو كعبه في الأدب والنقد يقول بعدما أوردها كاملة في رحلته مانصه : «قلت أبدع هذا الناظم رحمه الله فيما نظم، وشرف هذه القصيدة بقصده الجميل فيها وعظم، فراقت معنى ومنظرا، وشاقت حسا ومخبرا، فهي كما وصفها أبو عبد الله المصري حين قال (يئست عن معارضتها الأطماع، وانعقد على تفضيلها الاجماع، وطبقت أرجاء الأرض، وأشرقت منها في الطول والعرض).

وأبو عبد الله المصري الذي ورد ذكره في كلام العبدري هو بلدي الشقراطسي من توزر ولكنه شهر بالمصري ويعرف بابن الشباط وقد كان محتفلا بهذه القصيدة رواها بالسند المتصل إلى ناظمها، ورويت من طريقه وشرحها وخمسها وسمى تخميسه بسمط الهدى في الفخر المحمدي وذكر العبدري مطلعه وهو هذا :

إبدأ بحمد الذي أعطى ولم تسل
وذد به ريب ريْن الأين والكسل
فالحمد أحلى جنى من طيب العسل
(الحمـد لله منـا بـاعث الـرسل
هدى بأحمد منا أحمد السبل)

و قد أثنى العبدري على هذا المطلع وحكم له بالإجادة وهو كذلك ولايستغرب من ابن حبيش فإنه كان على تضلعه في العلوم راسخ القدم في الادب وله شعر ينم عن ذوقه وانطباعه.

وممن أثنى على الشقراطسية ثناء عاطرا، الشيخ أحمد بن عمار صاحب كتاب نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، نقل عن الرصاع كلاما في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وما يستحسن إنشاده من الشعر، ومنه هذه القصيدة، وذكر أبياتا منها في هذا الغرض. فعقب عليه ابن عمار بقوله فيها : «وهي من القصائد العظام البديعة النظام، الرائقة المعاني الوثيقة المباني، وهي من الطراز الأول، وعليها في هذا الباب المعول، وقد رأيت أن أثبتها هنا برمتها،

لانقياد البلاغة في أزمتها ولكونها فتحت للافتتان أبوابا. وأحكمت من نسج البديع أثوابا وطارصيتها في الآفاق، وانعقد على بركتها الاجماع والاتفاق» ثم أتى بها كاملة وأعقبها بكلام الناس فيها وماسبق إيراده من أمثلة التخميسات التي وضعت عليها وغير ذلك.

على أن من الأدباء من شطرها ومنهم من عشرها، وتتبع ذلك يطول وأما عن شروحها من غير ما ذكر فكثير وهذا دليل ناصع على ماكان لها من شهرة واسعة وأنها اعتبرت نسيجة وحدها لما ظهرت، كما ألمعنا لذلك من قبل وأشار له الشيخ ابن عمار في سجعاته المذكورة آنفا.

نقد العبدري لها

قدمنا ماقرظ به العبدري هذه القصيدة، ونورد أيضا مالاحظه على بعض أبياتها، إذ كان ناقدا قلما يسلم من وخزاته أحد، وإليك ماقاله بإثر كلامه السابق في نقدها «على أنه رحمه الله تعالى قد أكثر فيها لأجل الصناعة التصنع، وتكلف منها ماهو بعيد المرام، شديد التمنع، واعترض في كل معنى عرض، وربما أغرق النزع فخالف الغرض، كقوله (فويل مكة من آثار وطأته) البيت، وقوله : (وحل بالشام شؤم غير مرتحل) وماجرى هذا المجرى من كلامه رحمه الله ولكن قصيدته بالجملة قد حلت من البلاغة في حصن ممنع، وجلت وجها زهاه الحسن أن يتنقع[1] فإن أنكرت من وصفها قولا، أو

(1) هذا تعبير مقتبس من عمبر بن أبي ربيعة في بيت من قصيدة عينية يقول فيه :
ولما تفاوضنا الحديث وأسفرت وجوه زهاه الحسن أن تتقنعا

سمعت في مدحها تخصيص لولا، أحردت متأملة، وأنشدت متمثلة :

ماسلـــم البـــدر على حسنـــه
كلا ولا الظبي الذي يـوصف
البـــدر فيـــه كلـــف ظاهـــر
والظبـي فيـه خنس يعـــرف...»

وهذا الذي انتقده العبدري من قول الشقراطسي لايتوجه عليه إذا استحضرنا أنه يتكلم على مكة، وهي في قبضة المشركين، فالويل منصرف إليهم وليس لها، وكذا القول في الشام، ماحل بها من الشؤم، إنما هو لمن حل بها من الروم لابها أما التصنع ويعنى به صناعة البديع فإنه كان حلية الكلام، وحلبة التباري بين الأدباء في تلك العصور، والناقد نفسه لم يسلم منه في كثير من كلامه، وقد رجع فأقر بتفوق القصيدة في مجال البلاغة، والحق هو هذا الذي وقع عليه الانفصال.

نسخ القصيدة التي قابلناها عليها

بيدنا للشقراطسية ست نسخ كاملة إحداها مخطوطة من القرن التاسع الهجري أو العاشر على الأكثر فيما يظهر وهي في خمس صفحات كبيرة من ستة وعشرين وسبعة وعشرين سطرا.

ومدادها فاتح، وبعض أبياتها وهي التي تكون بمثابة الفصل بين موضوع وآخر، مكتوبة بالأحمر وكذا بعض الاعلام وإسم الجلالة بالخصوص، وبعضها الآخر بالأخضر، وهي مشكولة شكلا تاما

وصحيحا وبهامشها كلمات تشير إلى اختلاف النسخ في بعض الأبيات مما يدل على أنها نسخة مقابلة بغيرها فيمكن اعتمادها باطمئنان.

والثانية والثالثة هما نسختا رحلتي ابن عمار والعبدري، والأولى مطبوعة في الجزائر سنة 1322 هـ = 1904 م والثانية مطبوعة في الرباط سنة 1968 بتحقيق الأستاذ الكبير محمد الفاسي.

والرابعة نسخة كتاب المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح المطبوع بمصر سنة 1352 هـ = 1933 م وهي ختام الكتاب، وقد جاء في آخرها بتبيان أحدهما في الصلاة على النبي ﷺ والثاني يتضمن تسمية الناظم، وهما مثل البيتين اللذين يضافان إلى قصيدة البردة للبوصيري في الصلاة عليه ﷺ، ويظن أن الباعث عليهما خفاء عبارة الصلاة التي ختمت بها كل من القصيدتين لصياغتها الأدبية البليغة فعبر صاحبا البيتين بعبارة صريحة في الصلاة يفهمها الجميع. وعلى كل فهذان البيتان المشار إليهما ليسا من القصيدة بحال.

والخامسة نسخة كتاب نهاية الأرب للنويري، طبعة مصر سنة 1374 هـ = 1954 م تصويرا عن طبعة دار الكتب. وقد جاءت في آخر الجزء الثامن عشر منه، وهذه نسخة وقع فيها اضطراب وخلط بين أبياتها بحيث فقدت الترتيب الطبيعي الذي يجعل معانيها متساوقة منسجمة. وذلك في أربعة مواضع. الأول بعد البيت 57

حيق أقحم ستة أبيات ابتداء من البيت 100 إلى البيت 105. والثاني بعد هذا البيت بالذات إذ أقحم البيت 64 إلى البيت 99 والثالث إثر هذا البيت إذ جاء بعده البيت 55 إلى البيت 64 والثالث بعد هذا البيت حيث أقحم البيت 106 إلى النهاية، فهي إن كان نصها سليما في الجملة إلا أن ترتيبها لايعتمد[1].

والسادسة نسخة كتاب الجديد في أدب الجريد للأستاذ أحمد البختري التونسي المطبوع سنة 1973.

وتم قطع من القصيدة مخطوطة وقفنا عليها في بعض المجامع وشروح السيرة النبوية وكتب الأمداح، ومطبوعة في بعض هذه الشروح والكتب المنشورة كشرح الزرقاني على المواهب ذكرت على سبيل الاستشهاد، وقد راجعناها عند المقابلة استئناسا بها كأنها نسخة سابعة وتم بذلك إخراج النسخة التي نقدمها للقارىء، وتصحيحها بقدر الوسع والطاقة، مع الاشارة في ذيول الصفحات إلى الاختلافات الواقعة بين هذه النسخ في الجملة، وإن كان بعضها قد يعد من خطأ الطبع في المطبوع منها والكمال لله ونشير إلى نسختنا بحرف الخاء وإلى نسخة رحلة ابن عمار بحرف العين وإلى نسخة رحلة العبدري بحرف الراء وإلى نسخة المنهاج الواضع بحرف الميم وإلى نسخة نهاية الأرب بحرف النون وإلى نسخة كتاب الجديد بحرف الجيم.

(1) نبهني إلى هذه النسخة الأستاذ الصديق بن العربي محافظ الخزانة العامة بمراكش. فله الشكر.

نصـهـا

1) الحمـد لله منـا بـاعث الـرسل
هدى (بأحمد) منا، أحمد السبُل

2) خير البرية من بَدْوٍ ومن حضَر
وأكرم الخلق من حافٍ ومُنتعِل

3) توراة موسى أتت عنه فصدَّقها
إنجيل عيسى بحق غير مفتعل

4) أخبارُ أخبارِ أهلِ الكُتب قد وردت
عما رأو أو روَوا في الأعصُر الأُوَل

5) ضاءت بمولده الآفاقُ واتصلت
بُشرى الهواتف في الإشراق والطِّفل

6) وصرح كسرى تداعى من قواعده
وانقضَّ[1] مُنكسِرَ الأرجاء ذا مَيَل

7) ونار فارس لم توقد وما خمدت
من ألف عام ونهر القوم لم يَسِلِ

8) ومنطقَ الذيب بالتصديق معجزةٌ
مع الذراع ونطق العير والجمل

9) خرَّت لمبعثه الأوثانُ وانبعثت
ثواقبُ الشهب ترمي الجن بالشُّعل

(1) في ن : وانقاض

10) وفي دعائك بالأشجار حيت أتت
تمشي بأمرك في أغصانها الذُّلــل[1]

11) وقلتَ عُودي فعادت في منـابتها
تلك العروق بإذن الله لم تمِل

12) والسرحُ بالشام لما جئتَها سجدت
شمّ الذوائِب من أفنانها الخُضل

13) والجِذع حنَّ لأن فارقتَه أسفـا
حنين ثكْلى سجتها لوعةُ الثَّكــل

14) ماصبرُ من صار من عين إلى أثر[2]
وحالُ من حال من حلى[3] إلى عطل

15) حيي[4] فمات سكونا ثم مات لدن
حَيي حنينا فأضحى غاية المثــل

16) والشاه لما مسحت الكف منك على
جهـد الهزال بـأوصال لها قُحُـل[5]

(1) في ر : الدلل بإهمال الذال
(2) في ع : على.
(3) في ع و ن و ج : حال وحينئذ يقرأ عطل بكسر الطاء.
(4) في ع و ر و م : حي.
(5) في ع : نحل وفي م : محل

17) سحّت بدرة شكرى[1] الضَّرع حافلة
فروت الركب[2] بعد النهل بالعلل

18) وآية الغار إذ وقيتَ في حجب
عن كل رِجْس لرجس الكفر مُنتَحِل

19) وقال صاحبك الصديق كيف بنا
ونحن منهم بمرأى الناظر العَجِل

20) فقلت لاتحزن إن الله ثالثنا
وكنتَ في حجْب ستر منه منسدل

21) حمت لديك حمامُ الوحش جاثمةً
كيدا لكل غَوِي القلب مختبل

22) والعنكبوت أجادت حوُّك حَلتها
فما يُخال خِلال النسج من خَلل

23) قالوا وجاءت إليه سرحة سترت
وجْهَ النبي بأغصان لها هُدُل

24) وفي سُراقة آيات مبينة
إذ ساخت الحجر في وحل[3] بلا وحل

25) عرجت تخترق السبع الطباق إلى
مقام زُلفى كريم قُمت فيه علي

(1) في ع، وم : شكوى وفي ر : شكر وشكري الضرع ممتلئته لبنا.

(2) في م : فدرت

(3) في ر : رجل والحجر بكسر الحاء : أنثى الخيل.

26) عن قاب قوسين أو أدنى هبطت ولم
تستكمل الليل بين المر والقفل
27) دعوتَ للخلق عام المحل مبتهلا
أفديك بالخلق[1] من داع ومبتهل
28) صعدَت كفيك إذ كيف الغمام فما
صوَّبت إلا بصوب الواكف الهَطِل
29) أراق بالأرض تجا صوب ريقه
فحل بالروض نسجا رائق الحُلل
30) زُهرٌ من النور حلت روض أرضهم
زهرا من النور ضافي النَّبت مكتهل
31) من كل غصن نضير مورق خضر
وكل نور نضيد مونِق خضِل
32) تحيَّة أحيت الأحياءَ من مَضر
بعد المضرة تروي السّبل بالسَّيل[2]
33) دامت على الأرض سباغير مقلعة[3]
لولا دعاؤك بالاقلاع لم تزَل

(1) في خ : للخلق.
(2) في م. ون و ج بالسبل بفتح الباء وهو المطر.
(3) في ر : مغلقة.

34) ويومَ زَوْرِك بالزوراء[1] إذ صدروا
من يُمْن كفك عن أعجوبة مثل

35) والماء ينبع جودا من أناملها
وسط الإناء بلا نهر[2] ولا وشل

36) حتى توضأ منه القوم واغترفوا
وهم ثلاث مئين جمع محتفل

37) أشبعت بالصاع ألفا مرملين كما
رويت ألفا ونصف الألف من سمل[3]

38) وعاد ماشبع الألف الجياعُ به
كما بدوا فيه لم ينقص ولم يحل

39) أعجزت بالوحي أرباب البلاغة في
عصر البيان فضَّلت أوجهُ الحيل

40) سألتهم سورة في مثل حكمته
فتلهم عنه حَينُ العجز حين تُلي

41) فرام رجس كذوب أن يعارضه
سخف إفك فلم[4] يحسن ولم يطل

(1) الزوراء المذكورة هنا موضع بالمدينة وهو في حديث أنس عن هذه المعجزة كما في الصحيحين رأيت رسول الله، وهو بالزوراء وحانت العصر : الحديث.

(2) في ر : ولانهر.

(3) السمل بقية الماء في الإناء

(4) في ع : لم وهو كذلك لايتزن، وفي م، و ن : بعى عي مكان بسخف افك.

42) مثبـج بركـيك الافك ملتــبس
ملجلـج بـزري[1] الـزور والخطــل
43) يمج أول حــرف سمعُ سامعـــه
ويعتريـه كـلالُ[2] العجــز والملــل
44) كأنـه منطـق الورهـاء شذّ بـــه
لبس من الخبل[3] أو مس من الخبل
45) أمَـرت البيـرَ بـل غـارت لمحبتـــه[4]
فيها وأعمى بصير العين بالثقـل
46) وأيبس الضرعَ منه شؤم راحتـه
من بعد إرسال رِسلٍ منه منهمل
47) برئت من دين قوم لاقــوام لهم[5]
عقولهم من وثاق الغي في عُقل
48) يستخبرون خفيَّ الغيب من حجر
صلد، ويرجون غوث النصر من هبل
49) نالوا أذى منك لولا حلم خالقهم
وحجـة الله بالإعــذار لم تُنَــل

(1) في ر : بردي

(2) في م : كلام العجز

(3) في خ : الحبل بالمهملة والخبل بالسكون الفساد وبالفتح الجن

(4) في ن : واغورت لمحبته.

(5) في طرة خ : إشارة إلى نسخة أخرى فيها : له. وهي أنسب وفي ج بريت مكان برئت. وفي ن غلل مكان عقل

50) واستضعفوا أهل دين الله فاصطبروا
لكل معضل خطب فادح جلل
51) لاقَى بِلالٌ بلاءً من أُمية قد
أحله الصبر فيه أكرَمَ النزل[1]
52) إذ أجهدوه بضنك الأسْر وهو على
شدائد الإزل[2] ثبت الأزر ولم يزل
53) ألقوه بطحاً بِرمضاء البطاح وقد
عَالوا عليه صخورا جمة الثقل
54) يوحِّد الله[3] إخلاصا وقد ظهرت
بظَهره كنُدوبِ الطل في الطلل
55) إن قُدَّ ظهرُ وليِّ الله من دُبُر
قد قدَّ قلبُ عدو الله[4] من قُبُل
56) نَفِرت في نفر لم ترض أنفسُهم
إذ نافروا الرِّجس إلا القُدس من نَفَل
57) بأنفُس بُدِّلت في الخُلد إذ بذَلت
عن صِدق بذْل ببدر أكرَم البَدَل

(1) في م: أكرم النول.
(2) الداهية والأمر الشديد.
(3) في م، و ن: فوحد الله.
(4) يريد به أمية بن خلف الذي كان يعذب بلالا بمكة فقتله بلال في بدر.

58) مِـن كل مُهـتَصِر لله منـتصِر
بالبِيض مختَصِر بالسُّمـر معتقِـل

59) يمشي إلى الموت[1] عالي الكعب معتقلاً
أظمى الكُعوب كمشي الكاعب الفُضُل

60) قد قَاتَلُوا دونك الأقْيالَ عن جلد
وجالَدُوا بجلاد البيض والجَـدَل

61) وصَلْتهم وقطعت الأقـربين معـاً
في الله لولاه لم تقطع ولم تَصِل

62) وجاء جبريل في جُنْد له عُـددٌ
لم تبتذِلْها أكفُّ الخلـق بالعَمَـل

63) بِيض من العَوْن لم تُستلَّ من غُمُدٍ
خَيْل من الكَون لم تستَنَّ في طِيَل

64) أحبب بخيل من التكوين قد جُنبت[2]
لجانب عن جناب الحق مُعتـزل

65) أعميتَ جَيْشاً بكف من حصى فَجَثوا
وعقّلوا عن حَرَاك النَّقل بالنقـل[3]

---

(1) في طرة خ : إشارة إلى نسخة فيها : إلى الحرب.
(2) في ر : حبيت.
(3) النقل محركا صغار الحجارة.

66) ودعــوة بفنــاء البــيت صادقـــة
غــذا أمَيـــةُ منها شرّ منخــــذِل[4]

67) غادَرت جَهل أبي جهل بمجْهلـةٍ
وشاب شيبةً قبل الوقت[5] من وَجل

68) وعَتْبـة الشر لم يُعتب فتَعطِفـــه
منك العواطفُ قبل الحَين في مَهَل

69) وعقبــة الغمــر عقبــاه لشقوتـــه
أن ظل[6] من غمرات الخِزي في ظلل

70) وكلُّ أشوسَ عاتِي القلب مُنقلِب
جَعَلتـه بقلـيب البِئـر كالجُعَــل

71) وجَــاثم بِمنــار النَّقْــع مشتغِــل
بِجَاحمٍ من أُوار الثُّكْل مُشتعل

72) عقدتَ بالخزي في عطفْي مقلِّده
طوقَ الحمامة باقٍ غيـرَ منتقِـل

73) أمسى خَلِيل صغار بعد نَخْوتـه
بالأمس في خُيَلاء الخَيْل والخَول

(4) في غ : منخزل، والدعوة المشار إليها هي ماجاء في الصحيح من قوله ﷺ : اللهم عليك الملأ من قريش وسمى نفرا منهم : أبا جهل وأمية ابن خلف وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة فصرعوا كلهم في بدر.

(5) في ع : المتوت وفي ن : الفوت

(6) في ن : قد ظل والمراد بعقبة : ابن أبي مُعيط وهو الذي القى سلا الجزور على النبي عند سجوده فدعا عليه وعلى رفاقه.

74) دامٍ يُـديم زفيراً في جَـوانحه
جُنْحٌ من الشك لم يَجْنح ولم يَمل
75) يقاد في القدِّ خَنقاً مشربا حَنقاً
يمشي به الذُّعر مشي الشارب الثمل
76) أوصالُه من صَليل الغُل في عِلل
وقلبُه من غليل الغِل في غُلل
77) يظَلُّ يحجَل ساجي الطرف خَافضه
لِمَسْكَة الحِجل[1] لامن مُسْكة الخجل
78) أرحَت بالسيف ظهر الأرض من نَفر
أزحَت بالصِّدق منهم كاذِب العِلل
79) تركت بالكُفر صدعاً غيرَ ملتئم
وآب عنك بقُرح غير مُندمِل
80) وأفلَت السيفُ منهم كلَّ ذي أسف
على الحِمام حماه آجلُ الأجل
81) قد أعتَقَتْه عِتاقُ الخيل وهو يرى
به إلى رِقِّ موتٍ رقَّة الغَزل
82) فكم ببكَّة من باكٍ وباكيَةٍ
بفيض سَجْل من الآماق مُنْسجِل
83) وكاسف البال بالي الصبْر جُدْت له
بوابِل من وَبال الخزي مُتَّصل

(1) في م : من مسكة.

84) فؤاده من سعير الغيظ في غُلل
وعينُه من غزير الدمع في غلل
85) قد أسعرتْ منه صدراً غير مصطبر
وحملت منه صبرا غير مُحتَمَـل
86) ويـومَ مكـة إذ أشرفْت في أمم
يضيقُ منها فِجَاجُ الوعث والسهَل
87) خوافقٌ ضاق ذَرْعُ الخافقين بها
في قَاتم من عجَاج الخيل والإبلِ
88) وجحفل قَذِف الأرجاء ذي[1] لجب
عَرَمْـرم كزُهـاء السَّيـل منـجسل[2]
89) وأنت صلى عليك الله تقدُمهـم
في بَهو إشراق نُور منك مكتمِل
90) يُنير فـوقَ أغَـرَّ الوجـه منتـجب[3]
متـوَّج بعزيـز الـنصر مُقتَبـل
91) يسمـو[4] أمـام جنـود الله مرتديـاً
ثـوبَ الوقـار لأمـر الله مُمتثِـل

(1) في ر : في لجب.
(2) في ع، وم : الليل وفي العبدرية : النسيل منسحل، وهو تصحيف.
(3) في ر و م : منتخب.
(4) في م، ون : تسمو

92) خَشَعْتَ تحت بهاء[5] الغِز حين سمتْ
بك المهابة فِعل الخاصع الوجـل

93) وقـد تبـاشر أمـلاكُ السمـاء بما
ملكتَ إذ نلت منه غايةَ الأمل

94) والأرض ترجُف من زَهْو ومن فَرق
والجو يُزهر إشراقاً من الجَـذَل

95) والخيـلُ تختـال زَهْـواً في أعـنَّتها
والعِيس تنثالُ رهواً في ثُنَى الجُدُل

96) لولا الذي خَطَّت الأقلامُ من قَدر
وسابق من قضاء غير ذِي حِوَل

97) أهَّل تَهلانُ بالتَّهليل من طـرب
وذاب يذبُل تهليـلا مـن الذُّبُـل

98) الملكُ لله هذا عز من عُقـدت
له النبوةُ فوق العرش في الأزل

99) شعَبت صدع قريش بعدما قذفت
بهم شعوبُ شعاب السهْل والقَلل

100) قالـوا محمـدُ قـد زارت كتائبُـه
كالأسد تزأر في أنيـابها الـعُصُل

101) فويْـل مكـةَ مـن آثـار وطْأتـه
وويْل أمِّ قُريش من جَوى الهَبل

---

(5) في ن : تحت لواء العز.

102) فجُدت عفوا بفضل العفو منك ولم
تُلمِم ولا بـألِيم اللـوم والعَـذل

103) أضربت بالصفْح صفحاً عن طوائلهم
طوْلاً أطال مَقيل النوم[1] في المُقَل

104) رجمتَ واشِجَ أرحام أتُيـح لها
تحتَ الوشيج نسيجُ الروْع والوجَل[2]

105) عاذوا بظل كريم العفوذي لَطَف
مُبارَك الوَجْه بالتوفيق مشتمِل

106) أزكى الخليقةِ أخلاقاً وأطهرها
وأكرم الناس صَفحا عن ذوي الزلل

107) زان الخشوع وقارٌ منه في خَفر
أرقّ من خَفر العذراء في الكِلل

108) وطُفت بالبيت محبُوراً وطاف به
مَن كان عنه قُبيْل الفتح في شُغل

109) والكفر في ظُلمات الخزي مرتكِسٌ
ثاوٍ بمنزلة البهموتِ من زُحل

110) حَجَزْت بالأمن أقطار الحجاز معا
وملت بالخوف عن خَيْفٍ وعن ملل

(1) في ن : القوم

(2) في ع : والخجل.

111) وحل أمنٌ ويُمْن منك في يَمن
لمَّا أجابت إلى الايمان عن عَجل

112) وأصبح الدينِ قد حُفَّت جوانبُه
بعِزَّة النصر واستولى على المِلل

113) قد طاع مُنحرفٌ منهم لمُعترف
وانقاد مُنعدِلٌ منهم لمُعتدِل

114) أحِبْ بِخُلة أهل الحق في الخُلل[1]
وعزٍّ دولته الغراء في الدُّول

115) أمَّ اليمامة يومٌ منه مصطلم
وحلَّ بالشام شؤمٌ غير مرتِحل

116) تعرقت منه أعراقُ العراق ولم
يترك من الترك عظمٌ غير منتثل[2]

117) لم يبق للفُرس ليث غير مفترسِ
ولا من الحُبش جيشٌ غيرُ مُنجفِل

118) ولا من الصِّين صونٌ غير مُبتذَل
ولا من الرُّوم مَرمى غير منتضَل

119) ولا من النُّوب جِذم[3] غير مُنجذِم[4]
ولا من الزِّنج جِذْل غير مُنجدِل

(1) في ر، و م : خلل.

(2) في ر، منشتل

(3) في ر : جزم وهو تصحيف.

(4) في ر : منجزم

120) ونيلَ بالسَّيف سيفُ النِّيل واتصلت
دعوى الجنود فكلُ بالجِلاد صَلي
121) وسُلَّ بالغَرب غَربُ السَّيف إذ شرقت
بالشَّرق قبل صدور البيض والأسل
122) وعـاد كـلُّ عـدو عـزَّ جانبُـه
قد عاذ منك بِبَذْل غير مُبتـذَل[1]
123) بذِمـــة الله والايمان مـــتَّصل
أو من شبا النصل بالأموال منتصل
124) ياصفوةَ الخلق قد اصفيت فيك صفا
صفْو الوداد بلا شَوب ولادَخل
125) ألستَ أكرم من يمشي على قدم
من البرية فوق السهـل والجبـل
126) وأزلَـفَ الخلـق عنـد الله منزلـةً
إذ قيل في مشهد الأشهاد والرُّسل
127) قُم يامحمدُ فاشْفع في العباد وقُل
تُسْمَع وسَلْ تُعط عائـداً وسَل
128) والكوثَرُ الحوضُ يروي الناس من ظمأ
بَـرْح ويُنقـع منـه لافِحُ الغُلـل
129) أصفى من الثلج إشراقا مَذَاقَتُـه
أحلَى من اللَّبن المَضروب بالعَسَل

(1) في ر : ببكل منه مبتذل ولا يظهر لها معنى.

130) نحلتَك الودَّ علـيٍّ إذ نحلتكــه
أحبـى بحبِّك منـه[1] أفضَل النُّحــل

131) فما لجِلدي بنُضج النار من جَلد
ولا لقَلبي بهْول الحشر من قِبل

132) ياخالقَ الخلق لاتُخلِق بما اجترمتْ
يداي وجهَي من حُوب ومن زَلل

133) وصْحب وصلِّ وواصِلْ كل صالحة
على صفيك في الإصباح والأصُل

---

(1) في ج : منك.

تائية أبي أسحاق الالبيري

هذه القصيدة من أروع ماقالته العرب في شعر الوصايا والحكم، وقل أن تشابهها قصيدة في هذا الباب، من حيث متانة البناء وعمق النظرة وقوة التأثير، إلا قصيدة أبي الفتح البُسْتي : (زيادة المرء في دنياه نقصان)، ولكن نونية أبي الفتح هذه شهيرة ومتداولة، وتجري أبياتها على الألسنة، وقد تضمنتها الدواوين الأدبية، فقلما يخلو كتاب للمنتخبات الشعرية منها. أما تائية صاحبنا الالْبيري فهي مهجورة منسية، لاتكاد تُعرف، أو يَلتفت إليها أحد من الباحثين وأصحاب المجموعات الأدبية والشعرية.

وهي تمتاز بالنفس الطويل، والنظرة المستقصية، والتناول المستوعب، فتقلِّب المعنى على جميع وجوهه وتتعمق فيه وتستبطِنُه، ولاتترك شيئا يخطر على البال مما يتعلق به، ألا ألمعت إليه واستعرضته في وضوح تام وبيان لامزيد عليه، حتى إن أغراضها انحصرت في مدح العلم وتفضيله على المال، والتزهيد في الدنيا ليس غير، وهي مع ذلك تنيف على عشرة ومئة بيت، والمُدهش من أمرها هو هذه السلاسة التي جعلتها في بلاغتها وحسن سبكها كأنها قطعة نثرية،

ونموذج إنشائي لأحد الكتاب البلغاء، لاقصيدة شعرية مرتبطة بوزن وقافية، وماذلك إلا لقوة عارضة صاحبها، ومقدرته البيانية، ونظمه بالسليقة لابالتكلف.

ويرجع عهدي بهذه القصيدة إلى أيام الطلب، حين كان الوالد ــ رحمه الله ــ يورد بعض الأبيات منها في مجلسه، ولاسيما البيت الذي يقول في آخره حاضاً على العمل بالعلم : عَلِمْتَ فهل عَمِلْتا ؟) وهذا البيت الفذ المؤثر :

إذا ألقـاك فَهْـمُك في مهـاوٍ
فليـتَك ثُـمَّ ليـتك مافهمتـا

ثم بعد ذلك اطّلعتُ عليها أو على ماأورده الوالد منها في شرحه لنصيحة الهلالي، وهو القسم المتعلق منها بالعلم وطلبه وآدابه والعمل به، وهو قسم طويل يكوّن وحده قصيدة كاملة، فلم أزل ألهج بأبياته وأجعلها نصب عيني في الدراسة والسلوك، إلى أن وقفت على ثلاث نسخ أخرى منها؛ سأتحدث عنها فيما بعد.

وقد كنت ألممتُ بها في كتابي أدب الفقهاء، في فصل الأخلاق والآداب منه، كما ألممت بقصيدة الواعظ الأندلسي في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في ذلك الكتاب، ووعدت برجوعي إليها في موضوع آخر وهو هذا، إذ لايشفي نفسي إلا إذاعةُ هذه القصائد ونشرُها كاملة، وعدمُ الاكتفاء منها بالشواهد والأمثلة كما اقتضاه بحث أدب الفقهاء.

أبو إسحاق الالْبيري

ترجم لأبي إسحاق القاضي عياض في «المدارك» ترجمة قصيرة قال عنه فيها : إنه من أصحاب أبي عبد الله بن أبي زَمنين رحمه الله، وروى عنه كتبه، وكان فقيهاً معظماً في وقته، ولم يذكر له تاريخاً. كما ترجم له الضبي في بغية الملتمس بما لايزيد على سطر فقال : إنه فقيه فاضل، زاهد عارف، كثير الشعر في ذمّ الدنيا مجتهد في ذلك.

والترجمة الوافية التي وقفنا عليها له، هي ترجمة ابن الأبار في كتابه التكملة في القسم الأول المفقود من طبعة قديمة، المنشور في الجزائر بعناية ألفريدبل وابن أبي شَنب ونصّها :

«إبراهيم بن مسعود بن[1] سعيد التُّجيبي، الزاهد من أهل غرناطة، يعرف بالإلبيري ويكنى أبا إسحاق. روى عن أبي عبد الله بن أبي زَمَنين وغيره. وكان من أهل العلم والعمل، شاعراً مُجوِّداً، وشعره مدوَّن، وكلّه في الحكم والمواعظ والأزهاد. ومسلكه سلَك أبو محمد بن العسّال الطليطلي، وكانا فرسَيْ رهانٍ في ذلك الزمان صلاحاً وعبادة. وقد حدّث أبو إسحاق، وروى عنه ابن أخته، وأبو محمد عبد الواحد بن عيسى، وأبو حفص عمر بن خلف الهمدانيان الإلبيريان وغيرهم».

---

(1) في الأصل : سعد

ثم ذكر بسنده أبياتا من شعر المترجم وقال : توفي في نحو الستين والأربعمائة».

وذكره ابن سعيد المغربي في كتابه المُغرب، وجعله من أهل حصن العُقاب، ولذلك لم ينسبه إلى إلبيرة كما أنه لم يذكره بنسبه التُّجيبي وإنما قال فيه :

أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود. من المسهب : هو من حصن العقاب وكان قد اشتهر في غرناطة اسمه وشاع عمله، واتسم[1] بالصلاح، وكان ينكر على ملكها كونه استوزر ابن نغْرلَّة اليهودي، وعلى أهل غرناطة انقيادهم له، فسعى في نفيه إلى إلبيرة فقال شعره المشهور :

ألا قُــل لصنهاجــة أجمعيــنْ
بُــدور الزمــان وأُسْد العَريــنْ
لقــد زلَّ سيــدُكم زلــةً
أقــرَّ بها أعيُــنُ الشامــتين
تخيَّــر كاتبــه كافــراً
ولـو شاء كان مـن المسلـمين
فعــزّ اليهودُ بــه وانتخَــوْا
وكانــوا مــن العِتْــرة الأرذلين

(1) بالأصل وارتسم، ونظن أن الصواب ماأثبتاه.

فاشتهر هذا الشعر، وثارت صنهاجةُ على اليهودي فقتلوه، وعظُم قدرُ أبي إسحاق»...

وبعد ذكر مقطوعيتن شعريتين له، إحداهما في محل سكناه، حصن العقاب قال : وله ديوان ملآن من أسعار زهدية، ولأهل الأندلس غرام بحفظها».

وهذا الديوان الذي أشار له كلٌ من ابن الأبار وابن سعيد المغربي قد نشره المستعرب الاسباني الشهير ايميليوغرسية كوميز لأول مرة عن مخطوطة مكتبة الإسكوريال التي تحمل رقم 404 مع مقدمة ضافية بالاسبانية، وتعاليق، وكلمة تحليلية لكل قصيدة أو مقطّعة من أشعاره، وفهرس عربي وآخر إسباني مفصل. وذلك في مئة وست وثمانين صفحة.

وممن ذكر أبا إسحاق صاحبُ الروض المعطار، فقال في تعريفه بمدينة إلبيرة : «ومنها أبو إسحاق بن مسعود الإلبيري صاحب القصيدة الزهدية التي أولها :

تــفتُّ فــؤادَك الأيـــامُ فتّـــا
وتنحت جسمك الساعـاتُ نحتـا

ثم ذكر أبياتا أخرى من شعره ولكنه لم يذكر لها تاريخاً.

وذكره أيضا أبو الحجاج البلوي في كتابه (ألف با) بعد أن أنشد أبياتا من قصيدته التائية في تفضيل العلم على المال فقال :

وهذا الشاعر هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري رحمه

الله، والقصيد حسن طويل، كان الأستاذ الفقيه أبو عبد الله بن سَورة شيخي رحمه الله، يحمل طلبته على حفظه لجودته».

وذكره كذلك المقري في نفح الطيب في أماكن مختلفة، منشدا له أشعارا زهدية وغيرها، كلها مما يوجد في ديوانه.

القصيدة ونسخها

تتألف هذه القصيدة من مئة وثلاثة عشر بيتاً. وعند ناشر ديوان أبي إسحاق، الأستاذ غرسة كوميس أنها مئة وإثنا عشر بيتا فقط، برغم البيت الذي يكمل ثلاثة عشر والذي قال إنه يوجد بهامش الصفحة (11) من مخطوطة الديوان، ليتخذ موقعه بين البيتين 29 و 35. وهذا البيت هو :

فراجِعْهـا ودَع عـنك الهُوَيْنـا
فمـا بالبُـطْء تُـدرك ماأردْتـا

وهذا البيت يوجد في جميع النسخ التي بأيدينا، حيث ذكر الأستاذ، وإنما استبعده من القصيدة لأن صاحبها يقول في البيت الأخير منها :

وقـد أردفتها ستـا حسانـا
وكانت قبـلَ ذا مئـة وستـا

فالجميع إذن 112 بيتاً لاغير، لكن الذي عندنا في النسخة الكاملة التي نصفُها فيما بعد هو مايلي :

وقــد أردفتها سبعــاً حسانـــا
وكانت قبـلَ ذا مئــة وستـــا

فهي على ذلك (113).

ونسخ القصيدة التي بيدنا الآن أربع :

1) نسخة شرح الوالد على نصيحة الهلالي[1]، وهي تقتصر على 42 بيتاً، وتبتدىء من قوله : (أبا بكر) أي أنها إنما تحوي القسم العلمي منها. وقد قدَّمها رحمه الله بقوله : «من قصيدة للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبي ضمَّنها وصية جامعة، ونصيحة لامعة لابنه أو ابن أخيه رحم الله الجميع، ونصّها — وبعدما أوردها قال — : «انتهى المراد منها».

فيلاحظ أولاً أنه سمّى جده سعيداً لاسعداً كما ورد في التكملة، وأنه نسبه إلى قبيلة تُجيب ولم يعرج على نسبته البلدانية، ويظهر أن ذلك هو الصواب، لأنه في الأصل من حصن العقاب كما سبق عن ابن سعيد، فنسبته إلى إلبيرة طارئة. ويلاحظ ثانيا أنه عيّن أبا بكر الذي وجهت إليه القصيدة بابن الشاعر أو ابن أخيه، وإذا لم يكن في الترجمة التي نقلناها عن ابن الآبار تصحيف، فربما كان أبو بكر هذا ابن أخت الشاعر الذي هو أحد الرواة عنه. على أنَّ تصحيف ابن أخيه بابن أخته ممكن ومحتمل جداً. وفي النسخة التي

(1) طبع هذا الشرح مؤخرا في مصر باسم النسق الغالي والنفس العالي شرح نصيحة أبي العباس الهلالي للشيخ عبد الصمد كنون في 640 صفحة.

تأتي بعد هذه تعينه بابنه على سبيل الجزم والقطع، ويبعد في نظرنا أن يكون ابنَه، وهو الذي يأتي في القصيدة أنه يوجِّه إليه ذلك العتاب المرّ، وإن كان على سبيل الفرض والتقدير، وليس من المعهود أن يخاطب الولدُ والدَه بذلك النقد اللاذع، أما إن كان ابن أخيه أو أخته فقد يمكن أن يتجرأ عليه بذلك، وإن قالوا : العَم أحدُ الأبوينْ.

وعلى كل حال فقد توقف ناشر الديوان في تعيين أبي بكر من هو، لأن القصيدة في الديوان لم تصدر بشيء في هذا الصدد.

2) نسخة أطلعني عليها الأخ الأستاذ الحاج أحمد بن شقرون عميد كلية أصول الشريعة بالنيابة، وقد نقلها حسبما ذكر لي من أوراق تالفة، وهي تبتدىء كذلك من قوله (أبا بكر) وتحتوي على (63) بيتاً، فتزيد بواحد وعشرين بيتاً على التي قبلها، وتنقص بخمسين بيتا عن النص الكامل للقصيدة، وأكثر ذلك من قسم التزهيد وذم المال. وجاء في تقديمها : «قال أبو إسحاق إبراهيم ابن مسعود ينصح ولده أبا بكر ويحثه على العناية بالعلم «فذكر اسمه بدون نسبة أصلا، كما فعل صاحب المغرب، وعين المنصوح المدعو أبا بكر فجعله ولده من غير تردّد.

3) نسخة كاملة توجد ضمن مجموع من كتب الخزانة العامة بتطوان رقم 536) وهو للعلاّمة أحمد بن عبد الرحمان بن عاشر الحافي السَّلوي المتوفى سنة 1163 يشتمل على تقاييد ورسائل

مهمة، وجلّه بخط يده. فتاريخها إذن يرجع إلى القرن الثاني عشر، ومع أن ناسخها من أهل العلم كما قلنا، فإنه قد تقع له بعض الهفوات، وأعظمها أنه كرر أربعة أبيات منها وردت في وسطها فذكرها مرة أخرى في آخرها ولم ينتبه لذلك. على أنّ إثباتها في وسط القصيدة إنما جاء إلحاقاً بالهامش، فلعله وقف على نسختين منها، إحداهما وقعت فيها هذه الأبيات أخيراً وهي التي نقل عنها أول مرة، والثانية وقعت في الوسط فألحقها ولكنه لم ينبه على ذلك. وقد اتَّبعنا نحن ما في الديوان من إثباتها في وسط القصيدة وحذفناه من الآخر.

4) نسخة الديوان، وهي نسخة كاملة أيضا باستثناء الملاحظة السابقة المتعلقة بالبيت الذي استبعده منها الناشر وقوفاً مع ماجاء في آخر بيت من قوله : «وقد أردفتها ستا حساناً» وهي نسخة صحيحة محقّقة بما عرف عن الأستاذ كوميز من معرفة دقيقة بالعربية وأدبها، إلا بعض الألفاظ القليلة سننبه عليها في التعليق، وغالبها من اختلاف النسخ أو التطبيع.

ونشير إلى هذه النسخ : الأولى منها بحرف (ل) والثانية بحرف (ش) والثالثة بحرف (ت) والرابعة بحرف (د).

وهذا هو النصّ الكامل للقصيدة، وقد فصلْنا بين أقسامها بنُجوم، وهذه الأقسام أكثر ما تدور — كما أسلفنا — على مدح العلم والترغيب فيه، وتفضيله على المال والتزهيد في الدنيا وعتاب النفس :

1) تــفتُّ فــؤادَك الأيـــامُ فتـــاً
وتنحَتُ جسمَك الساعـاتُ نحتَـا

2) وتدعـوك المَنـونُ دعـــاءَ صدق
ألا يــاصاحِ أنتَ أريــد أنتَـــا

3) أراك تُـحب عِـرساً ذات عَــذْر
أبَت طلاقَهـــا الأكيـــاسُ بتّـــا

4) تنامُ الدهـرَ ويْـحك في غطيــطٍ
بها حتـــى إذا متَّ انتبهتـــــا

5) فكــم ذا أنت مخدوع وحتـــى
متـــى لاترعَــوي عنها وحتـــى

6) أبـا بكـر دعــوتُك لــو أجبتَــا
إلى مافيــه حـــظك إن عقلتـــا[1]

7) إلى علــم تكــون بـــه إمامـــاً
مُطاعــاً إن أمــرتَ وإن نهيتـــا

8) ويجلــو[2] مابعينـك مــن عَشاهـــا
ويهديك[2] السبيـــلَ إذ ضَللْتـــا

9) وتحمِـلُ منه في نــاديك تاجــاً
ويــكسوك الجمــالَ إذ اعتَريْتـــا[3]

(1) في ت : إلى ما فيه رشدك إن قبلتا.
(2) في د : وتجلو وتهديك.
(3) في د : اغتربتا.

10) ينــالك نفعُــه مــادمت حيــا
ويبقــى ذُخــرُه لك إن ذهبتــا[1]

11) هو العَضْب المُهنّد لـيس ينبــو
تُصيب به المَقاتِـلَ[2] إن ضربتــا

12) وكنــزٌ لاتخاف[3] عليــــهِ لصاً
خفيفُ الحِمل يُوجد حيث كنتا

13) يزيــدُ بــكثرة الإنفــاق منــه
وينقُص إنْ بـه كفـاً شَدَدْ تـا

14) فلو قد ذُقت من حلواه طعما
لآثــرت التعلُّــم واجتهدتــا

15) ولم يشغلك عنه هـوى مطـاعٌ
ولادُنيــا بزُخرفهــا فُتنتـــا[4]

16) ولا ألهاك عنــه أنيــقُ روضٍ
ولاخِــدْرٌ[5] بربــر بِــه كَلِفتــا

17) فقُــوتُ الــروح أرواحُ المعــاني
ولست بأن طعمت وأن شَربتـا[6]

(1) هذا البيت ساقط في ش.
(2) هذا ما في ل وفي بقية النسخ : مقاتل من ضربتا. وقد آثرنا ماظهر لنا أنه أشعر.
(3) في ت : لايخاف .. لصاً. وهو تصحيف.
(4) فيت : افتتنا.
(5) في ل و ش خذن.
(6) في ل : ولاشربتا. وفي ت أو أن شربتا.

18) فواظِبْــه وخــذ بــالجدِّ فيــه
فــإن أعطــا اللهُ قــد انتفعتــا

19) وإن أوتـيتَ فيـه طويـل بــاعٍ
وقـال النـاس انك قـد سبقْتـا

20) فــلا تأمــن سؤال اللهِ عنــه
بتوبيخٍ : عَلِمْت فهـل عمِلتـا ؟

21) فـرأسُ العلـم تقـوى اللهِ حقـاً
ولـيس بـأن يُقـال لقـد رأستـا

22) وأحسنُ ثـوبك الاحسان[1] لا أن
تُـرى ثـوبَ الإساءة قـد لبستـا

23) إذا مـالم يُفِـدك العلـمُ خيراً
فخيرٌ منـه أن لـو قـد جهلتـا

24) وإن ألْقـاكَ فهـمُك في مَهـاوٍ
فليــتَك ثم ليــتك مافَهمتــا

25) ستجني من ثمار العَجز جهـلا
وتصغُـر في العيـون وإن كبُرتــا[2]

26) وتُفقـد إن جهـلت وأنت بـاقٍ
وتُوجَد إن علمت وقـد فُقدتـا

(1) هذا ما في ل. وفي بقية النسخ : أخذنا.

(2) في ش : وعود نفسك الاحسان. وفي د : وضافي ثوبك الاحسان.

(3) في ت ود : إذ كبرتا.

27) وتذكُر قولتي لك بعد حين
وتَغبِطها إذا عنها شُغِلتا

28) وسوف تَعَضُّ من ندمٍ عليها
وما تغني الندامةُ إن ندمتا

29) إذا أبصرت صحبَك في سماء
قد ارتفعُوا عليك، وقد سفِلتا

30) فراجعْها ودع عنك الهُوَينا
فما بالبُطء تُدرك ماأردتا[1]

31) ولاتحفِل بمالِك واله عنه
فليس المال إلا ماعلمتا

32) وليس لجاهلٍ في الناس مَعنىً
ولو مُلْكُ العِراق له تأتّى

33) سينطق عنك علمُك في نديٍّ
ويُكتَب عنك يوماً إن كتَبتا

34) وما يُغنيك تشييدُ المباني
إذا بالجهل نفسك قد هدَمْتا

35) جعلتَ المال فوق العلم جهلا
لعمرك في القضية ماعدلتا

(1) هذا هو البيت الذي استبعده ناشر الديوان.

36) وبينهما بـنصِّ الوحـي بَـونٌ
ستعلمـه إذا (طـه) قرأتـا[2]

37) ولئـن رفـع الغنـيُّ لـواء مـال
لأنت لـواءَ علـمك قـد رفعتـا

38) وإن جلس الغنـيُّ على الحشايـا
لأنت على الكواكب قد جلستا

39) وإن ركب الجيـادَ مُسوَّمـاتٍ
لأنت مناهـجَ التقـوى ركبتـا

40) ومهمـا افـتضَّ أبكـار الغـواني
فكم بكرٍ من الحكـم[3] افْتضَضْتَـا

41) ولـيس يضرُّك الاقتـارُ شيئـاً
إذا مـا أنت ربك قـد عرفتـا[4]

42) فمـاذا عنـده لك[5] مـن جميـل
إذا بفنـاءِ طاعتـه أنخْتـا

43) فقابـل بالقَبُـول صحيـح نصحـي
فإن أعرضت عنه فقد خَسِرتـا

---

(2) في سورة طه آيات في فضل العلم والتزهيد في الدنيا كآبة (وقل رب زدني علماً) وآية (ولا تمدَّنَّ عَيْنَيكَ إلى ما متَّعنا به أزواجا منهم).

(3) في ش : من المعنى

(4) في ت : قد أطعتا

(5) في ت : به ربحتا.

44) وإن راعيتـه قـولاً وفعـلاً
وتاجـرْت الالَـه فقـد ربحتـا[1]

45) فلـيست هـذه الدنيـا بشيء
تسوؤك حِقْبـةً وتسرُّ وقتـا

46) وغايتُهـا إذا فكّـرت فيها
كفيْئِك أو كحُلمك إن حلمتا[2]

47) سُجِـنت بها وأنت لها مُـحبٌّ
فكيـف تـحِبُّ مافيـه سُجنتـا

48) وتُطعِـمُك الطعـامَ وعـن قـريب
سَتطعـم منك مـا منها طَعِمتـا

49) وتعْـرى ان لـبست بها[3] ثيابـا
وتُـكسى ان ملابِسهـا خَلعْتـا

50) وتشهـدُ كـلَّ يـومٍ دفـنَ خِـلٍّ
كـأنك لاتُـراد بما شهِدتـا[4]

51) ولمْ تُخلـق لتعمُرهـا ولكـن
لِتعبُرَهـا، فجـدَّ لما خُلقتـا

---

(1) في د : ان حكمتا.

(2) في د : ان حكمتا.

(3) في د : لها.

(4) في ت : لما شهدتا.

52) وان هُدِمت فزدْها أنت هدماً
وشيِّد[1] أمرَ دينك مااستطعتا

53) ولاتحزن على مافات فيها
إذا ماأنت في اخراك فُزتا

54) فليس بنافع مانلتَ منها[2]
من الفاني إذا الباقي حُرمتا

55) ولاتضحَك مع السفهاء لهواً[3]
فإنك سوف تبكي إن ضَحكتا

56) وكيف لك السرور وأنت فانٍ
ولاتدري أتُفدى أم غَلِقْتا[4]

57) وسَلْ من ربك التوفيق فيها
وأخلِص في السؤال إذا سألتا

58) ونادِ إذا سجدت له اعترافاً
بما ناداه ذو النُّون بن متَّى[5]

59) ولازِمْ بابَه قَرعاً عساه
سيفتح بابه لك إن قرعتا

---

(1) هذا ما في ش. وفي ت ود : وحصن.

(2) في ش و ت : منهم.

(3) في ت : جهلاً.

(4) غلقتا : أي لم تُفد. وهذا البيت ساقط في : ش و ت.

(5) هو يونس النبي عليه السلام وماناداه به قوله : «لاإله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» كما في القرآن الكريم سورة الأنبياء آية : 76

60) وأكثر ذكـره في الأرض دأبـاً
لِتُذكـر في السمـاء إذا ذكرتـا

61) ولا تقُـل الصِّبـا فيـه مجالٌ
وفكِّـر كم صغيـرٍ قـد دفنتـا

62) وقلْ لي يا نصيـحُ لأنتَ أولى
بنصحك لو بعقـلك قـد نظرتـا[1]

63) تُقطِّعنـي[2] على التفريـط لومـاً
وبالتفريـط دهـرَك قـد قطعْتـا

64) وفي صِغـري تُخوِّفنـي المنايـا
ومـا تجري ببـالك حين شِخْتـا

65) وكنتَ معَ الصِّبا أهدى سبيـلا
فما لك بعد شيْبك قد نَكستا

66) وها أنا لم أخُضْ بحر الخطايـا
كما قـد خُضتـه حتـى غرقْتـا

67) ولم أشرب حُميّـا أم دفْـر[3]
وأنت شربتها حتـى سكرْتَـا[4]

---

(1) سقط هذا البيت وما بعده إلى البيت 94 من : ش.

(2) في ت : فتقطعني.

(3) أم دفر : كنية الدنيا. والدفر : النتن.

(4) في ت : شكرتا.

68) ولم أحلُل بوادٍ فيه ظلم
وأنت حَللْت فيه وانهمكتا[1]
69) ولم أنشأ بعصر فيه نفعٌ
وأنت نشأت فيه وماانتفعتا
70) وقد صاحبتَ[2] أعلاماً كبارا
ولم أرَك اقتديت بمن صحبتا
71) وناداك الكتابُ فلم يُجِبْه
ونبَّهك[3] المَشيب فما انتبهتا
72) لِيقبُح بالفتى فعلُ التصابي
وأقبحُ منه شيخ قد تَفَتَّى
73) فأنت أحقُّ بالتنفيد مني
ولو سكتَ المُسيء لما نطقتا
74) ونفسَك ذُمّ لاتذمُم سواها
ولو سكتَ المُسيء لما نطقتا
75) فلو بكت الدِّما عيناك خوفاً
لِذنبك لم أقل لك قد أمِنْتا
76) ومَن لك بالأمان وأنت عبدٌ
أُمرت فما ائتمرتَ ولا أطعتا

(1) في د : ونهملتا.
(2) في ت : وكم صاحبت.
(3) في د : ونهنهك.

77) ثقلتَ من الذنوب ولست تخشى
بجهـــلك[1] أن تخفَّ إذا وُزِنْتـــا

78) وتُشفِـق للـمصرِّ[2] على المعـاصي
وتَرحَمُـــه، ونـــفسَك مارَحِمْتـــا

79) رجعت القَهقَرى وخبـطت عشوا
لعمـرك لـو وصلتَ لما رجعَتـا

80) ولـو وافـيْت ربّك دون ذنبٍ
ونـاقَشك الحساب إذن هَلكتـــا[3]

81) ولم يَظلمك في عَمَلٍ ولكـن
عسيـرٌ أن تقـوم بما حَمَلْتـا

82) ولوْ قد جئتَ يوم الفضل فرداً
وأبصرت المنـازلَ فيـه شتّـى

83) لأعظـمتَ الندامـة فيـه لَهفـاً
على مـافي حيـاتك قـد أضعتـا

84) تفـرُّ مـن الهَجـر وتتّقيـه
فهَـلاَّ عـن جهـلك قـد فَرَرْتـا

85) ولستَ تُطيـق أهـونها عذابـاً
ولـو كنـا الحديـد بها لُبتـا

(1) في د : بجملك.
(2) في د : للمضر.
(3) فيه إشارة إلى الحديث : من نُوقش الحساب عُذِّب.

86) فلا تَكذبْ فإنَّ الأمر جدّ
وليس كما حسبت ولا ظننتا[1]

87) أبا بكر كشفْت أقلَّ عيب
وأكثَره ومُعظَمه[2] سترْتا

88) فقُل ماشئتَ فيَّ من المخازي
وضاعِفْها فإنك[3] قد صدقتا

89) ومهما عِبْتني فلِفرط علمي
بباطني، كأنك قد مدَحتا

90) فلا ترضَ المعائبَ فهي عارٌ
عظيم يورث الانسان مَقْتا

91) وتَهوي بالوَجيه من الثُّريا
وتُبدلُه مكان الفَوق تحتا

92) كما الطعاتُ تُنْعلك الدراري
وتجعلُك القريب وان بَعُدتا

93) وتنشرُ عنك في الدنيا جَميلاً
فتَلقى[4] البِرَّ فيها حيثُ سِرتا

---

(1) في ت : ولازعمتا.

(2) في ت : وأعظمه.

(3) في ت : تلقك.

(4) في ت : وتلقى.

94) وتمشي في مناكبها كريماً
وتجني الحمد مما قد غرستا

95) وأنت الآن لم تُعرف بعيب[1]
ولا دنَّست ثوبك مذ نشأتا

96) ولاسابقْت[2] في ميدان زُورٍ
ولا أوضَعت فيه ولاخَبتا

97) فإن لم تنأ عنه نَشبت فيه
ومن لك بالخلاص إذا نَشبتا

98) ودنَّس ماتطهر منك حتى
كأنك قبل ذلك ماطهُرتا

99) وصِرْت أسير ذنبك في وِثاقٍ
وكيف لك الفَكاكُ وقد اسرتا

100) وخفْ أبناء جنْسك واخش منهم
كما تخشى الضَّراغمَ والسَّبنتى[3]

101) وخالِطهُم وزَايلْهم حِذاراً[4]
وكن كالسَّامريِّ[5] إذا لمَستا

---

(1) في د : بعاب.

(2) في ش : ولاسبقت.

(3) السبنتى : النمر.

(4) في ت ود : خدارا. وهو تصحيف.

(5) السامري صاحب عجل بني إسرائيل، عاقبه موسى عليها السلام بنهي الناس =

102) وان جهِلوا عليك فقُلْ سلاماً
لعلَّك سوفَ تسلـم إن فعلتـا[1]

103) ومَن لك بالسلامة في زمانٍ
ينـالُ الـعُصم[2] إلاَّ إن عُصمتـا

104) ولاتلبثْ بحيٍّ فيه ضَميمٌ[3]
يُمـيتُ القـلب إلا إن كُبلتـا

105) وغرِّب فالغريبُ له نَفاق[4]
وشرِّقْ إن بريـقك قـد شرِقتـا

106) فليسَ الزهد في الدنيا خُمولاً
لأنت بها الأميـرُ إذا زهدتـا

107) ولو فوق الأمير يكونُ فيها
سموٌّ وافتخـار[5] كـنتَ أنتـا

108) فإن فارقتها وخرجت منها
إلى دار السلام[6] فقـد سلمتـا

= عن مقاربته ومماسَّته. فالمراد :اهرب منهم، وهذا البيت والثلاثة بعده ساقطة من : ش.

(1) في د : ان عقلنا.

(2) العصم : الجوارح والوعولُ الممتعنة برؤوس الجبال.

(3) في ت : ظلم.

(4) نفاق أي رواج وقبول.

(5) في د : تكون فيها سمواً وافتخاراً. وهذا البيت ساقط من : ش.

(6) دار السلام : الجنة، وفي ش : إذا فارقتها. وهي تنتهي عند هذا البيت.

109) وإن أكرمتها ونظرت منها
بإجلال فنفسك قد أهنتا
110) جمعتُ لك النصائح فامتثلْها
حياتك فهي فضلُ ماامتثلتا
111) وطولت[1] العِتاب وزدتُ فيه
لأنك في البِطالة قد اطلتا
112) فلا تأخذ بتقصيري وسهوي
وخذ بوصيتي لك إن رشدتا
113) وقد أردفتُها سبعا حسانا
وكانت قبلَ ذا مئةً وستاًّ

(1) في د : وحولت.

نونية أبي الحسن المسفر

هو الشيخ الحكيم أبو الحسن علي (بن خليل) المسفر السبتي، عرف بلقب المسفر الذي يعني أنه من أهل صناعة تسفير الكتب، وربما كان من ءال المسفر الاشراف الحسينيين المعروفين بفاس لأننا لم نعرف هذا الشيخ إلا من طريق ذكره عرضا في كتاب محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار لابن عربي الحاتمي فلا نستطيع أن نجزم فيه بشيء.

قال ابن عربي : «أنشدنا أبو عبد الله بن عبد الجليل قال أنشدني أبو الحسن على المسفر بسبتة لنفسه.

يا أيها المبتلى بذمي. قد علم الله ماتقول

فالقول ان خف في لساني.. أخافني وزنه الثقل

وحافظ كاتب شهيد... يكتب عني الذي أقول

من حاسب النفس كل حين... لم يتهاون بما يقول

ثم قال بأثر ذلك : «كان هذا الشيخ المسفر جليل القدر حكيما عارفا غامضا في الناس مخمول الذكر، رأيته بسبتة، له تصانيف منها منهاج العابدين الذي يعزى لأبي حامد الغزالي وليس له، وإنما هو

من مصنفات هذا الشيخ، وكذلك كتاب النفخ والتسوية الذي يعزى إلى أبي حامد أيضا وتسميه الناس المضنون الصغير.

ولهذا الشيخ أيضا القصيدة المشهورة وهي هذه :

قـــل لاخـــوان رأوني ميتـــا
فبكـــوني ورثـــوني حزنـــا
اتظنـــون بـــأني ميتكـــم
لست ذاك الميت والله أنـــا

إلى آخر القصيدة التي سنتكلم عليها فيما بعد.

هذا جملة ماورد عن صاحبنا في كتاب المحاضرة وهو أمر يدعو إلى إطالة التفكير في خذج الشخصية الغامضة التي كاد الاهمال يطويها من سجل التاريخ لولا تلك الاشارة العابرة من الشيخ محيي الدين رحمه الله. وعلى كل حال فالراوية ثقة لايتطرق إليه الشك الا ترى إلى روايته للأبيات الأربعة عن ابن عبد الجليل أي بالواسطة على الرغم من رؤيته للشيخ بسبتة ؟ وهو مع ذلك من أرباب هذا الشأن وذوي الرسوخ فيه، فإذا قال عن منهاج العابدين أنه يعزى لأبي حامد الغزالي وليس له،وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ، بهذه العبارات المفيدة لتأكيد مضمونها، فإنه يعرف مايقول ويعنيه. وكذلك يقال في كتاب النفخ والتسوية والقصيدة النونية التي نسبت أيضا للغزالي. وليس هذا فقط فإنا نجد في هذه الفذلكة من كلام الشيخ الأكبر جوابا عن تساؤل طالما ردده الباحثون في آثار

الإمام الغزالي وحلا لمشكل يتعلق بنفس فلسفة هذا المفكر العظيم.

ذلك أن كتاب منهاج العابدين لم يذكره ابن السبكي في جملة مؤلفات الغزالي أثناء ترجمته له في طبقات الشافعية، وقد لاحظ ذلك السيد مرتضى الزبيدي في شرح الأحياء، وأشار إلى مقالة ابن عربي هذه. وقد يعني ذلك أن نسبة الكتاب إلى الغزالي لم تكن معروفة في كل الأوساط بحيث خفيت على ابن السبكي فلم يذكره ولو بهذه الصفة. وذلك ما يرجح أنه ليس من مؤلفاته.

وذكر أبو سالم العياشي في رحلته كلام ابن عربي هذا ثم عقب عليه بما يلي :

(قلت قد اشتهر واستفاض نسبة منهاج العابدين للغزالي، وقد كنت قبل رؤية هذا الكلام أتعجب من كونه ليس جاريا على مذهبه في كتبه، ولا هو مطابق لنفسه، وكنت أبحث كثيرا عن المشائخ الذين ينقل عنهم فيه حيث يقول : قال شيخنا أبو محمد، قال شيخنا أبو عمرو، وليس ذلك دأبه في مصنفاته وأنا مع ذلك لأشك أن الكتاب له لاشتهار ذلك، وللاشارة فيه إلى احياء علوم الدين، ولنقله فيه عن امام الحرمين سماعا، فلما رأيت كلام الشيخ محيي الدين المتقدم تيقنت أنه ليس له لعدالة الشيخ محيي الدين وسعة علمه واطلاعه، سيما وقد ذكر أنه يعزى لأبي حامد فما نفاه عنه مع علمه بالعزو المذكور إلا لعلم يقين حصل له بأنه لغيره مع شواهد القرائن المتقدمة، فإن كلام أبي حامد لايكاد يخفى على من مارسه، فإنه لسان وقته بلاغة وتحريرا.

وذو الذوق السليم يميز بين الكلامين. ويشهد لذلك أيضا أن من عرف بالامام أبي حامد من الأقدمين لم يذكروا هذا الكتاب في تأليفه والله أعلم).

وهذا البحث المنهجي من أبي سالم العياشي ينفي كل مابقى من احتمال لصحة نسبة الكتاب المذكور إلى الامام الغزالي. وهو عند التحليل يرجع إلى العناصر الآتية :

1) أسلوبه غير أسلوب الغزالي فهو ليس جاريا على مذهبه، ولامطابقا لنفسه. وقد توارد الدكتور زكي مبارك مع العلامة أبي سالم على هذه العلة فقال في كتاب الأخلاق عند الغزالي : «ومن مؤلفاته الهامة في الأخلاق كتاب منهاج العابدين وهو آخر مصنفاته ولعل هذا هو السر فيما احتواه هذا الكتاب من مظاهر الضعف والاضطراب. وقد رأيت كيف اعتلت صحته بسبب العزلة. ونقل الزبيدي عن المسامرة لابن عربي أنه ليس له وانما هو لأبي الحسن علي بن خليل السبتي وسترى بعد قليل مازور باسم الغزالي من التآليف».

2) الأشياخ الذين ينقل عنهم ليسوا من أشياخ الغزالي المعروفين. وقد كنت قبل وقوفي على كلام أبي سالم سلكت نفس الطريق في معرفة مدى توافق هذا الكتاب وكتاب الأحياء الذي وقعت الاشارة إليه على أنه للمؤلف، فوصلت للنتيجة نفسها وهي أن هؤلاء المشايخ لاذكر لهم عند الغزالي.

3) عدالة الشيخ محيي الدين الذي نسب الكتاب لصاحبه الحقيقي مع معرفته بعزوه للغزالي وقد زدنا على ذلك فيما سبق أنه من أرباب هذا الشأن فلا يخفى عليه ماهو من كلام الغزالي وماهو من كلام غيره.

4) عدم ذكر هذا الكتاب في مؤلفات الغزالي عند من عرف به من الأقدمين. وقد أشار الزبيدي إلى هذا الوجه فيما المعنى إليه سابقا.

وبالرغم من القيمة العلمية لهذا البحث فإن المحقق أبا العباس الهلالي لم يقتنع به فكتب عليه في (نور البصر) بعد نقله له ما نصه : «قلت ورأيت مكتوبا على نسخة منهاج العابدين منقولا من خط الامام القصار أنه للغزالي وأنه آخر ماألفه، وأنه أنفع كتبه فيما أظن. وماذكره ابن العربي ان صح فلعله كتاب آخر لابن المسفر وافق كتاب الغزالي في الاسم. وأما منهاج العابدين المشهور ففيه التصريح بأن مؤلفه مؤلف الأحياء. ففي رجوع الشيخ أبي سالم عن اعتقاده الأول إلى ماعند الحاتمي نظر والله أعلم.»

والعجيب من الهلالي إذ يقول : «وماذكره ابن العربي (ان صح) فلعله كتاب آخر لابن المسفر وافق كتاب الغزالي في الاسم» وهو يرى أن الكلام كله مبني على نفي هذا المنهاج المنسوب للغزالي عنه وإثباته لمن هو له حقيقة ثم هو يتشكك في رواية ابن عربي مع ماعلم من عدالته وتثبته وكونه معاصرا لصاحبنا أبي الحسن

المسفر، ويتمسك بما وجد منقولا من خط الامام القصار في صحة نسبة الكتاب إلى الغزالي، ولايخلو أن يكون ذلك مجاراة للاعتقاد الشائع الذي لم يخف على أبي سالم. وأما ماجاء في الكتاب من التصريح بأن صاحبه هو مؤلف كتاب الأحياء فقد عرفه الجميع وهو ماحفزهم على البحث في ذلك حتى تحققوا بعدم صحته وتطرقوا منه إلى ذكر مانسب إلى الغزالي وغيره من الكتب التي ليست له ولاتتمثل فيها روحه. فلاشك عندي أن الهلالي لم يتأمل كلام العياشي ولذلك خانه تحقيقه.

هذا مايتعلق بكتاب منهاج العابدين، وأما كتاب النفخ والتسوية المعروف بالمضنون الصغير، فإنه أيضا لم يذكره ابن السبكي في تعداد مؤلفات الغزالي، وذكر المضنون به على غير أهله أعني المضنون الكبير عرضا أثناء الدفاع عن أبي حامد ورد ما انتقد عليه وهذا نصه في ذلك : (وذكر ابن الصلاح أن كتاب المضنون المنسوب إليه معاذ الله أن يكون له، وبين سبب كونه مختلقا موضوعا عليه، والآمر كما قال، وقد اشتمل المضنون على التصريح بقدم العالم ونفي علم القديم بالجزئيات ونفي الصفات، وكل واحدة من هذه يكفر الغزالي قائلها هو وأهل السنة أجمعون فكيف يتصور أنه يقولها ؟) فإذا كان ابن عربي إنما نفى عن الغزالي المضنون الصغير، وإذا كان كلامه يقضي بأن المضنون الكبير هو للغزالي فهذا ابن السبكي لايتعرض للمضنون الصغير بنفي ولاإثبات وينفي المضنون الكبير قطعا عن الغزالي.

وربما يقول القارىء أن كلامه ليس نصا في أحد المضنونين فبماذا حملتموه على الكبير ؟ قلنا أن وصف الكبير والصغير إنما هو اصطلاح حادث والا فالكبير اسمه المضنون به على غير أهله والصغير اسمه النفخ والتسوية، وأظن أن الناس أطلقوا عليه اسم المضنون الصغير من أجل تشابهه موضوعا في الجملة مع المضنون به على غير أهله ثم لصغر حجمه عنه. على أن السيد مرتضى الزبيدي قد فصل الكلام عنهما تفصيلا مما يفيد أن انتقاد ابن الصلاح موجه يقينا للمضنون الكبير. فقد قال في التنبيه على ما عزى لأبي حامد من كتب ليست له : (ومنها كتاب النفخ والتسوية فإنه كذلك موضوع عليه، ومنها المضنون على غير أهله، قال ابن السبكي ذكر ابن الصلاح أنه منسوب إليه، وقال معاذ الله أن يكون له إلى آخر ماسبق نقله عن ابن السبكي.

وقال على إثره : (وهو عندي، وفي المسامرة ــ يعني محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار لابن عربي ــ انه من تأليف علي بن خليل السبتي، وكذلك صرح صاحب تحفة الارشاد بأنه موضوع عليه وقد صنف أبو بكر محمد بن عبد الله المالقي كتابا في رده وتوفي سنة 750)

وقد عاد الزبيدي فخلط في هذا الكلام بين المضنونين إذ من المعلوم أن الذي ذكره ابن عربي هو الصغير، وعلى كل فقد أفاد هذا الكلام أن كليهما موضوع على الغزالي وليس من تأليفه. وأن

أحدهما وهو الكبير فيما يظهر لقي حملة عنيفة من لدن ابن الصلاح إلى أبي بكر المالقي الذي ألف كتابا خاصا في رده وقفت على تسميته عند النباهي في المرقبة العليا بكتاب السجوم الواكفة، والظلال الوارفة، في الرد على ماتضمنه المضنون به من اعتقادات الفلاسفة ولنا في سبب عزو كتاب النفح والتسوية إلى الغزالي وتسميته المضنون الصغير رأي لايبعد أن يكون صوابا، وهو أن هذا الكتاب وضع بشكل أسئلة وأجوبة نسبت في طالعها إلى الغزالي، ولذلك يُسمى أيضا كتاب الأجوبة الغزالية في مسائل الأخروية كما ثبت على ظهر النسخة المطبوعة منه، فلعل صاحبنا الشيخ المسفر وضعه بهذا الشكل لترويجه ولضمان اقبال الناس عليه، وهكذا جاء في أوله :

سئل الشيخ الامام الأجل الزاهد السيد حجة الاسلام زين الدين مقتدى الأمة قدوة الفريقين أبو حامد محمد بن محمد الغزالي قدس الله روحه ونور ضريحه، عن معنى قوله تعالى : «فإذا سويته ونفخت فيه من روحي»، ماالتسوية وما النفخ وما الروح فقال... إلى آخره فهذا الأسلوب الذي حرر به الكتاب مما يفيد أنه من املاء الغزالي وإن كان هو في الواقع من تأليف المسفر، جعل الناس ينسبونه للأول دون الثاني وتلاقيه مع المضنون به على غير أهله في بعض المسائل، وخاصة في الركن الرابع الذي يشتمل على أحوال مابعد الموت، مع كبر حجم هذا وتعرضه لمسائل لم يتعرض لها كتاب النفخ والتسوية، كل ذلك مما أعطاه اسم المضنون الصغير.

على أن المهم في هذا كله هو حل المشكل الذي تعرض له ابن الصلاح وهو اقتضاء نسبة المضنون إلى الغزالي أنه يقول بقدم العالم وعدم علم القديم سبحانه وتعالى بالجزئيات ونفي الصفات القديمة عنه وهو مذهب الفلاسفة الذي عرف الغزالي رحمه الله بالتفاني في دحضه وإقامة الأدلة على بطلانه، كما يعلم من كتابه تهافت الفلاسفة وغيره، فجاء كلام ابن عربي في كتابه محاضرة الأبرار مزيحا لهذه العلة مزيلا لهذه الشبهة حيث أن الكتاب المذكور ليس له، وإنما هو لصاحبنا المسفر كما جاء كلامه المشار إليه جوابا عن سؤال المشتبهين في نسبة كتاب منهاج العابدين للغزالي بعد أن درسوه ورأوه مخالفا لطريقته ولايشبه نفسه.

فإن قيل أن الذي نفاه ابن عربي عن أبي حامد هو المضنون الصغير، والطعن المذكور إنما يتوجه إلى المضنون الكبير، قلنا أن هذه مسألة أخرى تثير إشكالا جديدا، وهو أن كلا من المضنونين اللذين بيدنا لايوجد فيهما التصريح بشيء مما ذكره ابن الصلاح، عدا مايوهمه كلامه في المضنون الصغير في فصل الروح من القول الأول أعني قدم العالم، وكذلك بعض فقرات من المضنون الكبير فلعل العبارات التي كانت صريحة في هذا المعنى جردت منه.

وثم في المضنون الصغير في الفصل المذكور عبارة تزرى بالاشعرية والمعتزلة، وهذا بالنسبة إلى نفى الكتاب عن الغزالي مهم جدا، لأن من المعروف أن أبا حامد كان أشعري العقيدة فهو لايتوكأ على أصحابه بهذه الصورة.

وننظر أخيرا في قصيدة صاحبنا النونية التي قال عنها ابن عربي أنها قصيدة مشهورة فنجد أنها نسبت أيضا إلى الغزالي، وقيل انها وجدت بعد موته تحت وسادته، فأما نسبتها إليه فتستفاد من شرح الأحياء للزبيدي حيث أنه قال في التنبيه الذي تقدمت الاشارة إليه على الكتب التي عزيت للغزالي مانصه : (ومنها كتاب تحسين الظنون. وله فيه :

لاتظنـــوا الموت موتـــا أنــــه
لحيـــاة وهـــي غايـــات المنـــى
أحسنـــوا الظـــن بـــرب راحـــم
تشكـــروا السعـــي وتاتـــوا أمنـــا
مـــــأرى نــــــفسي إلا أنتم
واعتقـــادي أنكـــم أنتم أنـــا.

وهذه الأبيات هي من ضمن القصيدة التي نحن بصددها، فهذا مايدل على نحْلها للغزالي. وأما أنها وجدت بعد موته تحت وسادته فإنا رأينا ذلك مكتوبا على نسخة خطية منها. وقد علمت أن الشيخ الأكبر جزم بنسبتها لصاحبنا من غير أن يقول أنها تنسب للغزالي كما قال في الكتابين السابقين من تأليفه، فلم يبق شك في أنها للشيخ المسفر.

وهذه القصيدة هي من الشعر الفلسفي الرفيع، وحقها أن تقرن بعينية الشيخ الرئيس ابن سينا فإن كلا منهما تناولت مطلبا مهما

من مطالب الفلسفة وصاغته صياغة شعرية جميلة يمتزج الخيال فيها بالحقيقة، ويحلق في سماء العقل فيرود آفاق المعرفة من غير أن يفقد طبيعته السحرية الأخاذة أو يضيع لحنه الشجي الخالد.

وإذا كانت عينية ابن سينا تتناول موضوع النفس، فإن نونية صاحبنا تتناول موضوع الموت ومابعد الطبيعة، فتعتبر الموت تحررا من قيد السجن وانطلاقا نحو حياة أفضل من هذه الحياة الدنيا هي ماكانت النفس تتمناه وترغب في التعرف إليه لتبلغ كمالها، وتنعم أبدا في عالم قدسي يكشف لها فيه الحجاب عن الحقائق العليا وتعود سيرتها الأولى من الفطرة التي فطر الله عليها الناس، ويتلمح من القصيدة القول بوحدة الوجود، وهو من مذاهب الفلسفة التي أخذ بها كثير من المتصوفة كالشيخ الأكبر وغيره، وفي النص الذي أثبته الزبيدي من كلام ابن عربي عن صاحبنا بعد قوله رأيته بسبتة زيادة جملة لاتوجد بنسخة المحاضرة المطبوعة وهي : (وتباحثت معه) فلا شك أن مباحثاتهما كانت في هذه المطالب وماشابهها. وكان ابن عربي حينئذ في عنفوان الشباب، في سن الثلاثين فما إليها، لأنه ولد سنة 560 ورحل إلى المشرق رحلته التي لم يرجع منها سنة 598 وفي أثناء ذلك كان يقيم باشبيلية، ويتردد على المغرب للدراسة والسياحة إذ ثبت أنه درس بسبتة وفاس على بعض علمائهما.

أما صاحبنا فالغالب أنه كان في نهاية عمره، ويدل على ذلك أن ابن عربي روى الأبيات اللامية الأربعة من نظمه عن طريق بعض

شيوخه، فهو وان لقيه يعد في رتبة مشيخة شيوخه. وبذلك نظن أنه لم يتجاوز القرن السادس فهو من رجاله.

والآن نقدم نص القصيدة كاملا على ماحققناه من مقابلة النسخة المطبوعة بالمخطوطة التي عندنا وهي تزيد على المطبوعة خمسة أبيات مع اختلاف في الترتيب وفي بعض الألفاظ. وإن كان لفظ المطبوعة في بعض الأبيات يكون أوفق للمعنى أو أنسب للوزن، والأبيات الزائدة في مخطوطتنا هي الثاني، والسادس والتاسع، والثامن والعشرون، والواحد والثلاثون، بترتيبها الذي اتبعناه لاترجيحا له ولكن لأن ترتيب المطبوعة هو تحت نظر كل واحد، فنكون بهذا قد وضعنا النسختين معا بين يدي من يهتم بدراسة القصيدة أو آثار الشيخ المسفر جملة :

1) قـــل لإخـــوان رأوني ميتـــا
فبكـــوني ورثـــوني حزنـــا

2) أعلى الغـائب منـي حزنُكـم
أم على الحاضر معكـم هاهُنـا

3) أتـظـنــون بـأنــي ميتـكــم
لـيس ذاك الميتَ والله أنـا

4) أنـا في الصُّور وهـذا جسدي
كان لـبْسي وقمـيصي زمنـا

5) أنـا كنـز وحجـابي طـلسم
مـن تـراب قـد تهيَّـا للفنـا

6) أنــا درُ قــد حــواني صَدَفٌ
طِــرتُ عنــه فتخَلَّــى رهنــا
7) أنــا عصفــور وهــذا قــفَصي.
كان سِجْنــي فألــفت السجنــا
8) أشكــر الله الــذي خلّصنــي
وبَنــى لي في المعــالي رُكُنــا
9) كـنت قبـل اليوم ميتـا بينكـم
فحيـــيت وخَلَــعت الكفنــا
10) فأنــا اليــوم أناجــي مــلأً
وأرى الله جهــارا عَلنــا
11) عاكـف في اللوح أقــرا وأرى
كل مــاكان ويــأتي ودنــا.
12) وطعامــي وشرابي واحــد
هــو رمــزٌ فافهمــوه حسَنــا
13) ليس خَمــرا سائغــا أو عسلا
لا، ولا مــاءً ولكــن لَبَنــا
14) هــو مشروب رسول الله إذ
كان يسري فطره مــع فطرنــا
15) فافهمــوا السر ففيــه نبــأ
أيُّ معنى تحت لفظ كمنــا !

16) فاهدِمـوا بيتـي ورُضُّوا قـفصي
وذَروا الطِّـلْسم بعـدي وثَنـا
17) وقمـيصي مزقـوه رِمَمـاً
ودعـوا الكـل دفينـا بَيْننـا
18) قـد ترحـلتُ وخلَّفتكُـمُ
لست أرضَى داركم لي وطنـا
19) حَيٌّ ذي الدار نَؤوم مُغـرِق
فـإذا مـات أطـار الوَسنـا
20) لاتظنـوا الموت موتـاً أنـه
لَحيـاةٌ هـي غايـاتُ المنـى
21) لاتُرعْكُـم هَجْمـةُ الموت فمـا
هـي إلا نُقلـة مـن هَاهُنـا
22) فاخلعوا الأجساد عن أنفسكـم
تُـبصِروا الحقَّ عيانـا بيِّنـا
23) وخذوا في الـزاد جهـدا لاتَنُـوا
لـيس بالعاقـل منّـا مـن وَنى
24) حسنـوا الظـن بـرب راحـم
تشكُـروا السعـي وتأتـوا أمَنـا
25) مـاأرى نـفسي ألا أنتـمُ
واعتقـادي أنكـم أنتـمْ أنـا

26) عـنصر الأنــفس منَّــا واحـــد
وكـــذا الجسم جميعـــا عمَّنـــا

27) فمتـــى مـــاكان خير فلنـــا
ومتـــى مـــاكان شر فَبنـــا

28) فـــارحموني تـــرحموا أنفسكـــم
واعلمـــوا أنكـــمُ في إثْرِنـــا

29) أسأل الله لنـــــــفسي رحمة
رحـــم الله صديقـــا أمَّنـــا

30) وعليكـــم مـــن سلامـــي صيِّب
وسلام الله بَـــدْأً وثُنـــى

31) أبـدَ الدهـرِ إلى يـــوم يـــرى
بعضُنـــا بـعضا لـــرحْب وهنـــا

محتويات الكتاب

المقدمة 5

قصيدة أنجم السياسة 9

من هو صاحبها 12

نسخها واسمها 26

نص قصيدة أنجم السياسة 28

قصيدة الواعظ الأندلسي في مناقب عائشة الصديقية 41

صاحب القصيدة 42

السماع 45

نسخ القصيدة 47

نص القصيدة 48

القصيدة الشقراطيسية في مدح المصطفى 57

القصيدة وصاحبها 58

تقريظ الناس لها واهتمامهم بها 59

نقد العبدري لها 61

نسخ القصيدة التي قابلناها عليها 62

نصها 65

تائية أبي إسحاق الالبيري 81

أبو إسحاق الألْبيري 83

القصيدة ونسخها 86

نص القصيدة 90

نونية أبي الحسن المسفر 105

نص القصيدة 116

مطبعة النجاح الجديدة

الدار البيضاء